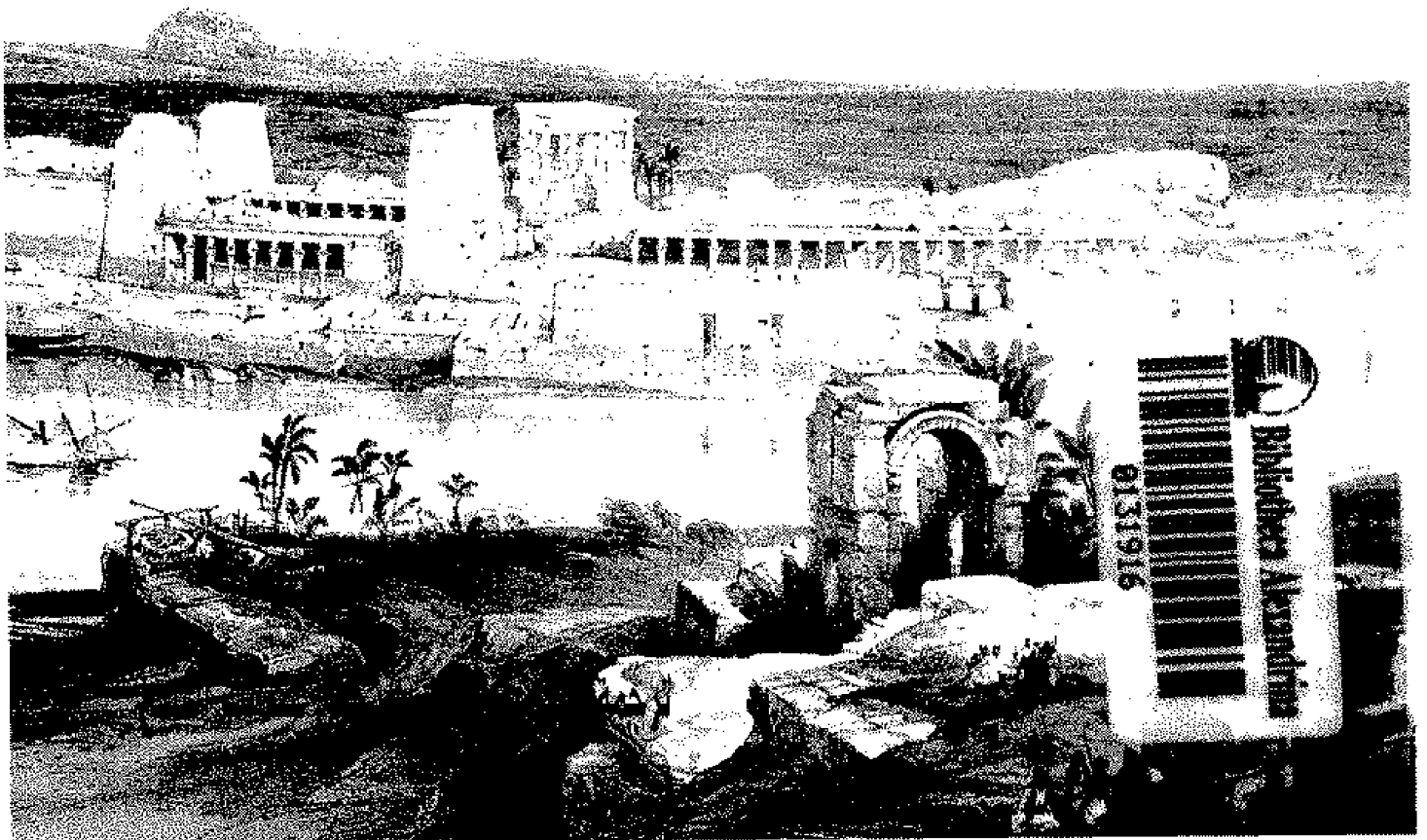


# رحلة الأمير ردولف إلى الشرق

الجزء الثالث





رحلة  
الأمير ردولف  
إلى الشرق  
(مصر والقدس)

## الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

رحلة..  
الأمير ردولف  
إلى الشرق  
(مصر والقدس)

الجزء الثالث

صاحب السمو الإمبراطوري والملك

الأمير ردولف

ترجمة ودراسة

د. عبد الرحمن عبد السلام الشينج



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦



## الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٧
الفصل السابع	١٢
تعليقات المترجم	
على الفصل السابع	٥٩
الفصل الثامن	٦٤
تعليقات المترجم	
على الفصل الثامن	١٠٦
الفصل التاسع	١٠٨
الفصل العاشر	١٥١





## مقدمة المترجم

يتابع الأمير ردولف رحلته بعد أن غادر مصر ، فيصل الى يافا ، ويتابع طريقه للقدس الشريف ويزور أماكنها المقدسة ويصف لنا مشاعره ومشاهداته وصفا شائقا، ثم يتجه الى بيت لحم ثم أريحا وشواطئ البحر الميت ثم يتخذ طريقه ليبحر من يافا الى بلاده بعد أن يكون قد زار عين السلطان والعوجة وعبد القادر وبيسان وتل طابور والناصرة .

وقد ألحقنا بالجزء الأول دراسة مطولة نسبيا عن بعض الأفكار الواردة في هذه الرحلة ، ويهمننا في هذا الجزء التركيز على نقاط بعينها .

القدس وما حولها: من أحق بها؟ قراءة في فكر الأمير ردولف:

● يقول الأمير انه منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها فلسطين ، وهو يحس أنه يرى رأى العين كل ما قرأه في العهد القديم : فالبشر هم البشر - الذين قرأ عنهم في العهد القديم - بملايسهم وملامحهم وأشكالهم ، مع أن البشر الذين رأهم لم يكونوا في غالبهم من اليهود ، وانما من المسيحيين والمسلمين ، حتى البدو رأى فيهم - كما رأى في بدو سيناء من قبل - نفس الملامح والصفات الفيزيائية التي قرأ عنها في العهد القديم عن المجتمع في عهد السيد المسيح عليه السلام . وان كانت رؤية الأمير ردولف صحيحة ، فان معنى هذا أن اليهود الذين رأهم أو في أية مرحلة تاريخية أخرى ليسوا هم بنى اسرائيل وحدهم ، وانما هناك كثيرون من غير اليهود من بنى اسرائيل أيضا ، وهذا هو المنطق الطبيعي للأمور ،

فاليهود فى عهد السيد المسيح ( عليه السلام ) لم يكونوا جميعا من المنكرين لرسالته ، فقد اعتنق – بالتأكيد – عدد كبير منهم المسيحية وان كان هذا لا ينفى أنهم من ناحية السلالة أو العرق من بنى اسرائيل ، وعندما ظهر الاسلام اعتنق عدد كبير من اليهود ومن المسيحيين أيضا الدين الاسلامى ، وهذا لا ينفى أنهم من ناحية العرق أو السلالة من بنى اسرائيل - فمن قال ان بنى اسرائيل هم اليهود فقط؟ ان كانت الملاحظات الأنثروبولوجية التى أوردها الأمير ردولف صحيحة ، فمن المؤكد وفقا لمنطق الأمور ، ووفقا لمسار التاريخ ، أن يهود اليوم هم أقل الناس تمثيلا لدم بنى اسرائيل . لقد ذكر الأمير أنه رأى وجوها من المسيحيين والمسلمين فى فلسطين ، تذكره تماما برسوم فنائى العصور الوسطى عن شغوص عاشت زمن المسيح عليه السلام . ورأى فى ملامح مسيحيات كثيرات ملامح المجدلية واليهوديات فى عهد المسيح عليه السلام .

❶ وتابع الأمير ردولف ببساطة ووضوح مسيرة الديانات السماوية الثلاث على أرض فلسطين ، فذكر أن اليهودية كانت هى الديانة الأولى التى دعت الى عبادة اله واحد حق ، وأن المسيحية رغم جدة بعض تعاليمها الأخلاقية ، الا أنها فى أصولها ووجودها ليست الا تكملة للديانات الشرقية القديمة وأولها اليهودية ، ثم ظهر الاسلام فأمكنه « أن يحافظ على الديانات السامية Semitic القديمة الشرقية فى أنقى صورة وأكثرها بعدا عن الخرافة » وذلك على حد تعبير الأمير ردولف ، ونؤثر فى هذا الصدد ايراد عبارة الأمير بنصها الانجليزى :

« The ancient Eastern Semitic religions have been preserved in their purest and most incorrupt form by Islam ».

ويعزو الأمير ردولف لهذا السبب نفسه انتشار الاسلام بين شعوب هذه المنطقة بمن فيهم اليهود فنجدده يقول :

« ولأن الاسلام منبثق من هذه الديانات السامية القديمة  
ولأنه لم يهدف إلا أن يكون استمرارا لها بين الأجناس نفسها،  
فقد استطاع - لهذا السبب - أن تكون له السيادة في هذه  
المنطقة وأن ينتشر منها إلى شعوب أخرى كثيرة مختلفة » .  
ويورد الأمير في رحلته هذه ما هو معروف مطروق  
لا نجد مبررا لتكراره هنا ، وهو أن الأماكن المقدسة  
المسيحية ، بل واليهودية لازالت موجودة في غالبيتها كما هي  
لم يلحقها تدمير ، في ظل الحكم الاسلامي المتعاقب وذلك  
لسبب بسيط واضح وهو انها في غالبيتها مقدسات  
اسلامية أيضا ، فالنبي موسى عليه السلام يحظى بتقدير وتوقير  
كل المسلمين ، ومن ثم فإن كل ما يرتبط به وبشريته يعد  
أيضا مزارا للمسلمين كما بين هذا الرحالة الأمير من واقع  
مشاهداته ، والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام يحظى  
بالتوقير والتبجيل أيضا باعتباره روح الله وكلمته وباعتباره  
نورا من نور ، وباعتباره نبيا كريما بعثه الله ليهدى به  
البشرية ، وهي نظرة لا تختلف كثيرا عما تقول به بعض  
المذاهب المسيحية ذاتها ، ومن ثم فإن معظم ما يتعلق به يعد  
أيضا مزارا اسلاميا .

فكثير من التراث اليهودي المرتبط بأماكن العبادة المسيحية  
غير مقبول لدى المسيحيين ، لنستمع إلى الأمير ردولف وهو  
يقول :

« ويقص اليهود بعض الحكايات المتعلقة بكل بقعة وكل  
خطوة ، وكان على - مثلي في ذلك مثل المسافرين الآخرين -  
أن أستمع اليهم ، لكنني أشكر الله كثيرا لأنني نسيت معظم  
حكاياتهم ، وأحيل القارئ المتسامح إلى تجرع جرعات من  
الدواء الذي يتجرعه مرضى الهوميو Homoeopathic . فهو رغم  
بشاعة مذاقه يمكن تحمله أكثر مما يمكن تحمل حكاياتهم »  
( ص ٢٧٤ من النص الانجليزي ، ص ٣٧ ، ج ٣ من الترجمة  
العربية ) .

وبطبيعة الحال ، فان كل التراث اليهودى المرتبط  
بأماكن العبادة الاسلامية غير مقبول لدى المسلمين .

نخلص من هذا الى أن المسلمين وحدهم هم المقبولون لدى  
أصحاب كل الديانات والمذاهب ليعكموا القدس ويشرفوا على  
مقدساتها .

ويحدثنا الأمير ردولف أن ثلة من العساكر الأتراك تطوف  
المدينة ، لتضمن لكل أصحاب دين أو مذهب أن يجروا  
احتفالاتهم ويؤدوا طقوسهم ، دون ازعاج من أصحاب  
الديانات والمذاهب الأخرى .

### أهـى واقعة لتزوير الآثار ؟

ويحدثنا الأمير أنه بينما كان يتابع طرائده فى رحلة  
صيد ، قرر التوقف لارهاق ألم به ولأنه شعر أن المطاردة لن  
تجدى شيئا لتحقيق ما يريد ، لكنه اكتشف أثناء التوقف  
أثرا مقدسا شائقا على حد قوله ، ولندعه يقص علينا حكاية  
هذا الاكتشاف وما به من دلالة : « ... لقد اكتشفت فى  
مدخل الجعر كتاب التراتيل البروتستنتى ، ربما جملة الى  
هنا بعض حيوانات الجحور وفقا لعادة كثير من الحيوانات  
التي تحفر مساكنها . وكان فى الكتاب - على أية حال -  
تراتيل وصلوات انجيلية ( بروتستنتية ) أصلية ، ودعوات  
للامبراطور وليم ، وبشكل عام كان المجلد بحالة جيدة من  
الداخل والخارج ، الا أن على بعض أوراقه بعض بقع دماء .  
ان الله وحده هو الذى يعلم كيف وصل هذا الكتاب الأوربى  
لهذا الموضع الموحش وكيف فقدته صاحبه ، ربما كانت عظامه  
قد تحللت فى مكان قريب فى هذا الدغل الكثيف » .

والجعر الذى يشير اليه الأمير موجود بالقرب من أريحا -  
ولا يمكن فهم هذا النص الا اذا عرفنا أن البروتستنت

وغيرهم من أصحاب المذاهب المسيحية الحديثة ( غير  
الأورثوذكس والكاثوليك ) محرومون من زيارة بعض الأماكن  
المسيحية المقدسة في القدس الشريف وما حولها ، وليس هنا  
مجال مناقشة مدى صواب ذلك فهو أمر يخص الكنائس  
المسيحية ، لكن الذي يهمنا في هذا المجال أن الأمير نفسه  
قد تشكك في أمر وجود هذا الأثر الديني البروتستنتي  
( الانجيلي ) مخبأ في جعر في مكان مهجور في الأرض المقدسة ،  
ونتساءل : أيكون دس هذا الأثر الديني في هذا المكان قد تم  
بفعل فاعل تمهيدا لكشفه أو ادعاء كشفه في يوم من الأيام ،  
ومن ثم بناء حقوق تاريخية للبروتستنت على هذا الأساس ؟!  
إن الآثار لا تكذب لكن أمر تزويرها قائم !

#### اليهود والغش :

ولا أدري تفاصيل الأسباب التي تجعل الأمير ردولف  
يربط « الغش » دائما باليهود ، فهو يقول انه عندما دخل  
الحى اليهودى بالقدس ، وجد الحوارى قدرة غاصة بالحوانيت  
ووجد « . . . الرجال اليهود يبيعون ويشترون ويساومون  
ويفشون . . . » ( ص ٢٨٨ من النص الانجليزى - ص ٥٨  
من الترجمة العربية ، ج ٣ ) بل انه عندما يجد مسلما يغش  
فانه سرعان ما يشبهه « بابن عمه اليهودى » .

#### ملاحظات على الترجمة :

عند ترجمة الجزء الخاص بالقدس الشريف  
استخدمنا كلمة المقدس ( بتشديد الدال وكسرها )  
لزائر الأماكن المقدسة ان كان مسيحيا ، وهي  
كلمة شائعة على اللسان المصرى ، واستخدمنا كلمة  
« زائر » ان كان المشار اليه شخصا مسلما ، علما  
بان الكلمة التي استخدمها الأمير هي « الحاج » .  
ومن المعروف أن شعيرة الحج بالنسبة للمسلمين  
قصر على الكعبة الشريفة وغيرها من المناسك في  
مكة المكرمة .

وعند استشهاد الأمير بنصوص من العهدين  
القديم والجديد فضلنا الرجوع مباشرة للترجمات  
العربية المتاحة ، وقد رجعنا - على نحو خاص -  
لأنجيل متى الذي أعادت ترجمته لجنة معتمدة من  
البابا كيرلس السادس بابا الإسكندرية وبطريك  
الكرامة المرقسية في كل أفريقيا والشرق ( سنة  
١٩٧٢ ) •

- ترجمنا عبارة the son of God بعبارة  
« المسيح عليه السلام » فالعبارة الأخيرة مقبولة من  
المسيحيين والمسلمين على سواء ، وأثبتنا المقابيل  
الانجليزى مراعاة للأمانة العلمية ، وعلى أية حال  
فعبارة the son of God لم تسرد في نص الرحلة  
الأمرة واحدة •

والله من وراء القصد •

د • عبد الرحمن الشيخ

## الفصل السابع

الوصول الى يافا - ملاحظات عن الاسلام  
والديانات الاخرى - الشيخ علي علي ضفاف  
الأردن - العجائب على وجوه المسيحيين واليهوديات  
والمسلمات - كنيسة يافا - المتسولون - الرملة -  
لترون - بير الجب وما حوله - خانات المقدسين -  
أبو جوش - موطن المكابيين - خرافات يهودية  
مقززة - عمواس - يهود أوروبا في القفصاين  
العبرية - كنيسة القيامة ومسجد عمر - التقصيب  
- الأتراك يحمون كل أصعاب المذاهب والديانات  
- القسديس جيمس - الحاخامات اليهود  
والفريسيون - المعبد اليهودي - العلية - أحقاد  
عثمان ( رضى الله عنه ) في القدس - جبل  
الزيتون - الصيد - رسوم بوسنجر - تعليقات  
المرجم \*

### الوصول الى يافا :

وجدنا أنفسنا في صباح الثامن والعشرين من شهر  
مارس في عرض البحر . وكان السؤال الذي يتكرر غالبا :  
ألم يظهر البر بعد ؟ فقد كنا ننتظر بفارغ صبر أن نرى البر  
الآسيوي لنترك البحر ، وأخيرا رأينا - بعد الظهر تكوينات  
جبال فلسطين ( يهوذا Judaea ) ( \* ) وقد لفها ضباب أزرق ،  
وتلا ذلك رؤيتنا للرمال الصفراء والتل المدرج الذي تقبع  
فوقه مدينة يافا Jaffa .

(\*) استخدم الأرشيدوق في أكثر من موضع في رحلته هذه مصطلحات العهد القديم ،  
لا تعاطف منه مع اليهود ، فالحقيقة أنه أشار إليهم - رغم دبلوماسيته الشديدة -

وعند النظرة الأولى بدت المنطقة جرداء منعزلة : مجرد  
كثبان رملية وجبال داكنة لا تسر رؤيتها العين \* وعلى أية  
حال ، فعندما اقتربت سفينتنا من يافا ذات العبق التاريخي  
رأينا سياجا من خضرة جميلة - أشجار كثيفة وبساتين تقع  
في وسطها يافا \* ولأنه ليس ليافا مرفأ لاستقبال السفن  
الكبيرة ، فقد كنا مضطرين الى أن نوقف سفينتنا على بعد  
مناسب من سياج الصخور التي تحيط بالمدينة من ناحية  
البحر \*

= باعتبارهم عناصر مأكرة ، كما أشار الى بعض قصصهم عن ارتباطهم بأرض فلسطين بأنها  
قصص مرفقة تدعو للفتيان ، وقد يكون مبالغا بعض الشيء ، لكننا نذكر ما يطالعه القارئ  
في هذا الفصل والفصول الأخرى ، أما إطلاق اسم يهوذا على تلال فلسطين ، فلا يمكن  
لهم دون الناحية التاريخية موجزة وقد رجعنا في ذلك للمقدمة التي كتبها لجنة ترجمة انجيل  
حتى (١٩٧٧) المكونة من الأنبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا والثقافة القبطية والبحث  
العلمي والامستاد زكي شنودة والدكتور مراد كامل والدكتور باهور لبيب والامستاد حلمي  
مراد ، والجدير بالذكر ان ما كتبناه يتفق مع ما تردده المراجع التي كتبها مسلمون \*

\* ... نشأ الجد الأول لليهود وهو أبو الأنبياء ابراهيم في مدينة اور ( جنوب  
العراق الآن - المترجم ) التي كانت تقع جنوبى بلاد بابل في بلاد ما بين النهرين ، وكانت  
مدينة اور مركزا للعبادة الوثنية في حين كان ابراهيم يؤمن بوجود الله الواحد ولا يعتمد  
الا له ... فرحل الى حاران ، ولما مات أبوه لزج مع قومه الى أرض كنعان المعروفة اليوم  
بأرض فلسطين .. وانحدر ابراهيم الى مصر زمن المجاعة ثم عاد الى فلسطين ، ولما تولى  
ورثه ابنه اسحق وهو الجد الثاني لليهود وانجب اسحق ابنه يعقوب \* وكان لقبه  
اسرائيل ، ولذلك لقب اليهود كذلك بينى اسرائيل ، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، كان  
من بينهم يوسف الذي استقر في مصر وأصبح الوزير الأول للرعون لاستدعى أباه وأهله ..  
واستقبل أمر سلالتهم وظهر من بينهم قوى هو موسى النبي فهاجر الى فلسطين ،  
وقاموا في سيناء أربعين سنة ، ولما بلغوا مشارق فلسطين مات موسى ( عليه السلام )  
فتولى أمرهم يوشع بن نون .. وبعد موته تولى حكم اليهود حكام عرفوا بالقضاة وكان  
آخرهم صبوليل النبي ١٠٩٥ ق.م ثم أعقبه داود النبي ثم ابنه سليمان الحكيم ١٠٠٠  
ق.م .. والتسم ملكه بعد موته .. وفي ٤٧٠ ق.م \* اغار « تغلت فلاسر » على أسباط  
اليهود في شرق الأردن وأخضعهم في السبي ، وفي ٥٨٨ ق.م هاجم ملك بابل نبوخذ نصر  
القدس وساق اليهود جميعا الى الأسر ، فهاكروا ساداتهم الكلدانيين في بلاد ما بين النهرين  
وعبدوا آلهتهم .. وفي عهد ( دارا ) الفارسي الذي سمح لهم بالعودة ، كانت دولتهم ولاية  
فارسية إذ كان أغلبهم من سبط يهوذا فدعيت بلادهم باليهودية ..... \*

من هذه الفترة الأخيرة يمكن فهم السبب الذي جعل الارشيدوق يطلق على جبال  
فلسطين وتلالها اسم تكوينات جبال يهوذا .. ان العهد القديم معشش في رأسه -  
( المترجم ) \*



وبمجرد وصول حاكم يافا (والى يافا) ومعاونيه وقائد المنطقة لسفينتنا، وصل رضا باشا معاون القائد General Adjutant وكان السلطان قد أحسن بإرساله - على وجه السرعة من اسطنبول (النص : القسطنطينية) ، ليرافقنا طوال رحلتنا في الأماكن المقدسة ، وكان هؤلاء المسئولون الكبار مختلفين بشكل واضح عن المسئولين الذين قابلونا في مصر ، إذ كانت ملامحهم أعرض وبشرتهم أشد بياضا - وبعبارة واحدة : كانوا أقرب الى الشخصية التركية . وكان علينا أن نعلم حالا أن هذه المنطقة مختلفة عن مصر من شتى النواحي - وقد سلمنى رضا باشا - وهو رجل مثقف مرح - خطابا من السلطان ، وقضينا معه أياما طيبة ، وقد احتفى بنا هذا الرجل اللطيف معشره احتفاء يفوق الوصف، وكان علينا أن نكون ضيوفه خلال اقامتنا وقد حظينا - بفضل صداقته - بقافلة طيبة وخيام ممتازة وكثير من التسهيلات التى خففت عناء الرحلة .

وبعد تبادل التحية ، ذهب هؤلاء السادة الأتراك ( رضا باشا ومن معه ) الى الساحل، ليتخلصوا من ملابسهم الرسمية الخاصة بمثل هذه المناسبات ، وليجروا بعض الترتيبات المختلفة . وجئنا لنصل للساحل بعد مغادرتهم مباشرة لكننا لم نكن هذه المرة فى قواربنا ، وإنما فى قوارب ذات قاع عريض مسطح يستخدمها أهل البلاد - وذلك لخطورة الساحل . وسرعان ما ابتعدنا عن سفينتنا ميرامار بفضل المرشد الماهر الذى يسيطر على الدفة ، وبفضل التجذيف القوي لرجاله ، لن نرى ميرامار مرة أخرى طوال فصل وسيكون مرساها أثناء ذلك فى ميناء بيروت وهو أقرب ميناء آمن ، وصحبنا فى رحلتنا للأماكن المقدسة اثنان من ضباط البحرية هما الكونت كورنسكى Chorinsky واللفتنانت ساكس Sacks .

وسرعان ما وصلنا لمنطقة الشعاب المرجانية الشهيرة

بخطورتها ، ولما كان يتعين على القارب أن يمر فى مجرى مائى ضيق تحفه صخور خشنة ، ففى وسع المرء ان يتصور مدى خطورة هذا الممر اذا كان المناخ سيئا والأمواج هائبة . لقد كان البحر أثناء عبورنا الممر المائى شفافا هادئا كالزجاج ، وقد وصلنا دون مشاكل لدرجات ( سلالم ) ميناء يافا الصغير الذى لا يصلح الا لاستقبال المراكب الصغيرة .

لقد قابلتنا بلاد جديدة بالنسبة لنا تختلف تماما عن مصر وأكثر اضطباغا بالصيغة الشرقية وأثرى فى الوانها . كل شىء فى هذه البلاد كان جديدا بالنسبة لى ، فقد أصبح الشرق الآسيوى الخالص أمامى للمرة الأولى . وقد شيدت يافا على مدرجات فوق تل ، والمنازل الدنيا - مثلها فى ذلك مثل الصخور الكائنة بينها - تغسلها أمواج البحر ، فالأحياء العربية المشيدة من الطين لا وجود لها هنا . لقد تركنا وراءنا فى أفريقيا تلك الجدران الطينية والأسقف المسطحة ، واستخدام الأخشاب فى البناء كما فى مدن ( وادى النيل ) . فالتشييد بالأحجار سمة من سمات الشرق الآسيوى الثرى الذى لا بد أن يكون متأثرا بالخبرات العبرية الماضية فى الأراضى المقدسة - وكان هذا جليا أمامنا من خلال المبانى الصلدة القوية بقبابها الدائرية على الأسقف ، والمدرجات المسطحة والبوابات ذوات العقود ، والمتسمة بالجهامة - وكلها مشيدة من أحجار مكعبة رمادية دون استخدام مواد لاصقة أو ملاط .

فالخطوة الأولى على تربة الأراضى المقدسة تذكر - فى المدن - بذكريات الحكم المنضبط للمملكة اليهودية وحكمة الملك سليمان ( عليه السلام ) أو بأيام السيد المسيح ( عليه السلام ) عندما كان يجلس بين حواربيه His apostles . كما تذكر على الدرجات الحجرية فى الميدان المكشوف ، كما تذكر بالصور الريفية التى تزرع أمام عيون العقل ، والتى كانت

تفرّف حولنا ونحن نقرأ الكتاب المقدس في طسولتنا .  
سأبراهيم الخليل The patriarch Abraham الملك البدوى  
( النبى البدوى ) ( \* ) الذى بقطمانه وخبوله الجميلة وخبامه  
الظرفية ونسائه الخاليات من العيوب - الرجل كبير السن  
بحكمته وتجاربه وعلمه ، العاقل ذو الحديث بالمقم بالأسرار  
والمعانى الباطنية والحكمة العملية . الرجل الذى أنجب  
الجنس النبيل ( أبو الأنبياء ) - لا يمكن أن يوجد الا فى  
الشرق ، ولا يمكن أن يكون مقره الا هذه الأرض .

وتغير الزمن ، وغير الدين أشكاله . لكن من بين كل  
الطقوس والشعائر الشرقية الكثيرة المتشابهة فى طبيعتها ،  
والمتشابهة فى أفكارها الأساسية - لا نجد الا اليهودى -  
واليهودى وحده باقيا محتفظا بطابعه ومحتفظا بمقيدته كما  
هى ، رغم تشتت اليهود فى كل بقاع الأرض ، فاليهودى  
وعقيدة الايمان بآله واحد حق The true Jehovah أرسل نبيه  
موسى ( عليه السلام ) ، بل وحتى البشر ( \*\* ) أنفسهم - الجنس

( \* ) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

( \*\* ) كثيرة هى المراجع التى تتحدث عن خرافة الجنس النقى ، فالجنس النقى تماما  
لم يعد له - من الناحية العلمية - وجود ، لكثرة الهجرات والحروب ، والتزاوج بين الشعوب  
والحضارات تزاوجا سلميا أو مفروضا بالقوة ، ومع هذا فكثيرة أيضا هى المراجع التى  
تؤكد خرافة زعم اليهود بأنهم جنس نقى ، ونفضل هنا نقل مقتضيات مما أوردته لجنة  
ترجمة انجيل متى ١٩٧٢ التى سبق أن اشرنا إليها فى حاشية سابقة بهذا الصدد :  
« ... مكث أبناء يثوب فى أرض مصر ٤٣٠ سنة بموافقة فرعون ... وفى ٤٧٠ ق.م  
أغار ه تغلت فلاسر ه ملك آشور على الأسباط القاطنة شرق الأردن وهى دابرين وباد  
ومنى ... وسافها عن بكرة أبيها نحو بلاده حيث عاشت هناك فى السنين عيش العبد ...  
ثم أغار ملك آشور ٥٥٥٥٥ ولما استولى الاسكندر الأكبر على البلاد سنة ٣٣٢ ق.م . خضعوا  
لحكمه وحكم قواده من بعده ، وخضعوا للرومان منذ سنة ٥٨ ق.م الذين ولوا على البلاد  
رجلا يهوديا من أصل أدومى يدعى انتيباترا وقد حقد عليه اليهود وقتلوه فحل محله ابنه  
هيرودس الذى عينه القائد الرومى ماركوس أنطونيوس ملكا ( تابعا ) على اليهود ، وقد  
اصطبغت أيامه كلها بالدماء بسبب جشعه ووحشيته واتسم عهده بالتفنن فى أساليب القتل  
وأبادة الناس بالجملة ، وقد ولد السيد المسيح فى أواخر عهده ... وأرسل الرومان ٧٠ م  
جيشا حاصر اورشليم ( القدس ) واقتحمها ونكها دكا وأضرم النار فى الهيكل ... وأعمل  
السيف فى رقاب اليهود ... فانهى بذلك تاريخ دولة اليهود الى الأبد ... وكان يهود  
الجليل خليطا من شعوب كثيرة ، وكان منهم اليهود ومنهم المهودون ، ومنهم الرثيون ...  
ومع أن يهود اليهودية ويهود الجليل كانوا يتكلمون الآرامية ، فإن يهود الجليل كانوا ... »

## المختار - رغم انتهاء وجودهم السياسي وخروجهم من البلاد nave Lost Country لا يزال كل ذلك موجودا بطابعه القديم

= " ينطقون بها بلهجة مختلفة ٠٠٠ وكانت السامرة في الشمال الغربي من اليهودية وكانت عقائد أهلها قد اختلطت بالكثير من العقائد والطقوس الوثنية ٠٠٠٠ " .  
هذا ما أوردهته اللجنة آنفة الذكر وقد أجملت كل كلمة في مبحثها هذا العهد القديم والأناجيل مقدمة النجيل متى/ترجمة ١٩٧٢ ، ص ١٨ - ٢٢ .

وإذا تركنا النقول السابقة وكلها من مصادر دينية محورها العهد القديم والأناجيل ، وطلعنا بعض الدراسات العلمية ، وجدنا أن أثر كسلر وهو يهودي من أبي مجري وأم نمساوية يتعرض في كتابه The thirteenth tribe « القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم » الذي ترجمه المترجم القدير أحمد نجيب هاشم ( صدر في سلسلة الألف كتاب - عدد ١٠١ ) - ليهود اليوم ذكرا أنهم في غالبهم ليسوا من سلالة يعقوب عليه السلام وليسوا من الأسباط الاثني عشر ، وإنما من سلالة سكان دولة الخزر اليهودية التي ظهرت في العصور الوسطى ٠٠ وقد بلغت أوج مجدها في الفترة الممتدة من القرن السابع إلى العاشر الميلادي وأمتدت من البحر الأسود إلى بحر آزوف ومن القوقاز إلى الفولجا وكانت عاصمتها (أتل) على نهر الفولجا .

« ٠٠٠ وأدرك الخزر دقة موقعهم بين قوتين عظميين : الامبراطورية الرومانية الشرقية المسيحية من جهة ، والامبراطورية العزبية الاسلامية من جهة أخرى ، فكانوا هم بمثابة القوة الثالثة في عصرهم . وحرصا على حماية دولتهم من ضغط المسيحية والاسلام فقد رأى « الخاقان » الذي حكمهم في منتصف القرن الثامن الميلادي اعتناق الديانة اليهودية هو وحاشيته وشعبه ، ولاحظ انه حتى قبل تحول الخزر الى اليهودية كانت بلادهم المأوى الطبيعي لهجرات جماعات اليهود التي وفدت اليها هربا من اضطهاد الحكام البيزنطيين ، بل كانت أشبه بوطن قومي لليهود ، كما ضمت بلاد الخزر أيضا عددا كبيرا من المسلمين والمسيحيين ، يقول المؤرخ العربي المسعودي الذي أطلق عليه الأوروبيون لقب «برودوت العرب » « ولي المدينة » أتل « خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية ( أي الوثنيين ) » . فاما اليهود ، فملك وحاشيته والخزر من جنسه - وكان يهود مارك الخزر في سلالة «ارون الرشيد » وقد انضاف اليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم - وذلك ان ملك الروم نقل من كان في ملكه من اليهود الى دين النصرانية وأكرمهم ٠٠٠٠ وقد ألف ملك الخزر في جيشه فرقة ضاربة من المسلمين وهؤلاء يعرفون « بالارضية » وهم قبيلة من نحو بلاد خوارزم وكان في قديم الزمان بعد ظهور الاسلام وقع في بلادهم جند وباء ، فانتقلوا الى ملك الخزر ، وهم ذوو بأس وشدة وعليهم رسول ملك الخزر في حروبه ، وأقاموا في بلده على شروط بينهم : أحدها اظهار الدين والمساجد والأذان ، وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم وثالثهم أنه متى كان ملك الخزر حارب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل بلدهم ويحاربون سائر الناس بحسبهم » . وكانت هناك علاقة وثيقة بين الخزر ومؤسس الاسرة السلجوقية فقد كان « توركان » أبو سلجوق قائدا في جيش خاقان الخزر .

ولعب الخزر دورا مهما في السياسة الدولية وحرص حكام الامبراطورية الرومانية الشرقية على التحالف معهم طيلة الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي ، وكثيرا ما اشترك الخزر في حروب ضد أعداء الامبراطورية البيزنطية التي تدبر لهم الكثير .

من الفضل في بقائها صامدة أمام الهجمات المتتالية التي شنتها عليها الغرب من جهة والعرب من جهة أخرى ، ووقف الخزر سدا منيعا حال دون زحف العرب نحو القوقاز ، ويقول بعض المؤرخين انه لولا وجود الخزر في الاقليم الشمالي من القوقاز لطوق العرب بيزنطة - بيد انهم اقاموا منذ اواخر القرن الثامن الميلادي علاقات ودية مع الخلافة الإسلامية وحرصوا على المحافظة عليها .

وفي عصر ساد فيه التعصب والجهل والوقوع في أوروبا الغربية وغلبت البربرية على الشعوب التي احاطت ببلاد الخزر في شرقها ، كان الخزر شعبا عصريا متقدما متحررا من الاتحاد القومية ومفتوحا لمختلف الثقافات والأديان له حكومته العادلة المتسامحة وفنونه التي تأثرت بالفنون الفارسية الساسانية وله جيشه القوي وتجارته الواسعة . وكثيرا ما تواجد التجار الخزر في القسطنطينية والاسكندرية بل وفي جهات أخرى نائية مثل « سامراء » و « فرغانة » (٢) يقول المسعودي : « جرى العرف في اقل عاصمة الخزر ان يكون بها سبعة قضاة منهم اثنان للمسلمين يفصلان في القضايا طبقا للشريعة الإسلامية ، واثنان للخزر يفصلان في القضايا بحكم التوراة ، واثنان من بها من النصرانية يحكمون بحكم النصرانية وواحد للصقالبة والروس وسائر الجاهلية ( الوثنية ) يحكم بأحكام الجاهلية . وهي قضايا عقلية فاذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل المظلمة اجتمعوا الى قضاة المسلمين فتحاكموا اليهم وانتقدوا الى ما توجيهه شريعة الاسلام ... وفي بلاد ملك الخزر خلق من المسلمين تجار وصناع غير « الارشية » ... لعله وامنه ولهم مسجد جامع والمدارة ( المتدنة ) تشرف على قصر الملك ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن .

وقد قضى الروس على امبراطورية الخزر في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي . ودمروا عاصمتهم « اقل » ، ولكن الخزر ظلوا محتفظين باستقلالهم داخل حدود ارضيق عن ذي قبل ، شأنهم في ذلك شأن ما حدث لامبراطورية النمسا والمجر عقب الحرب العالمية الاولى ، التي قضت على هذه الامبراطورية ولكنها لم تقض على النمسا بوصفها دولة مستقلة اجل - طال الخزر مستغنين باستقلالهم الى ان سقطت بلادهم فريسة لغارات المغول بزعامه « جنكيزخان » في منتصف القرن الثالث عشر . وجدير بالذكر انهم كانوا قبل هذا الغزو ويعدده قد ارسلوا فروعا كثيرة من سلالتهم الى البلاد الصقلية التي لم تقع في يد المغول ، وساموا بالتالي في تكوين جاليات يهودية كبيرة في شرق أوروبا .

ويوضح كيستلر في النصف الثاني من مؤلفه هذا ان الخزر في تكوين اليهود المعاصرين . وخلاصة ما انتهى اليه ان غالبية اليهود الحاليين ليسوا من اصل آشوري ، اي انهم ليسوا من الاسباط ( القبائل ) الاثنتي عشرة نسل يعقوب الوارد ذكرها في التوراة . بل انهم ينحدرون من الخزر ( القبيلة الثالثة عشرة ) ، الذين انتشرت ذريتهم في كثير من دول شرق أوروبا وخاصة بولندة والمجر وروسيا - اي انهم لم يهجروا من فلسطين بل من القوقاز - بعبارة أخرى . فان مصطلح معاداة السامية لم يعد له معنى في ضوء هذه الحقيقة .

وفي هذا الصدد لم يغت المؤلف ان يشير الى ان الأستاذ ابراهيم بولياك اليهودي الروسي الاحمل الذي هاجر مع أبيه الى فلسطين سنة ١٩٢٣ ثم أصبح فيما بعد أستاذ في

فاليهودى ينتقم لنفسه - بوحى لا شعورى - بالتاكيد على وجوده ( بالتمسك بطبيعته القديمة ) \* وهو - بوعى منه - يمثل قوة معينة متمثلة فى الذكاء الحاد الذى منحه اياه الشرق . لقد جرد الغرب اليهود من كل شيء وطردوهم وشتتوهم فى كل بقاع العالم لكنه لم يكن قادرا على افنائهم ومع هذا فلا زال اليهود - ذلك العنصر اللحوح much-trying موجودا . ويطالب بالعدالة (\*) .

« التاريخ اليهودى فى جامعة تل ابيب وأصدر مؤلفات كثيرة منها «تاريخ العرب» و «تاريخ الاقطاع فى مصر» - قد نشر من قبل ابحاثا عن الخزر وتحولهم الى اليهودية ، اثارت بدورها جدلا كبيرا حيث هاجم فيها الفكرة القائلة بانحدار اليهود الحديثين من القبيلة التوراتية وعدم بذلك اسطورة الشعب المختار . يقول الدكتور حسين فوزى النجار : « اذا كان بنو اسرائيل هم شعب الله المختار فقد كان هذا حين كانت رسالة الانبياء اليهم وحدهم وحين عمت الرسالة انسحب الاختيار الى كل من آمن بالله واليوم الآخر ، اسرائيليا كان أم مسيحيا أم مسلما ، والمختار هو المختار للرسالة وليس للتمييز أو التفضيل على البشر » .

كذلك قرر كيستلر أن الأستاذ النمساوى هوجو فريير فون كوتشيرا ( ١٨٤٧ - ١٩١٠ ) أثبت فى بحثه عن الخزر ، أن يهود شرق أوروبا ينحدرون منهم . . . . .  
أثر كيستلر : القبيلة الثالثة عشرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب - الالف كتاب ١٠١ ، ١٩٩١ .

وإذا تركنا النصوص الدينية ممثلة فى العهد القديم كما أوردناها فى صدر هذه الحاشية ، والبحوث العلمية كما أوردناها ممثلة فى نقول عن الياست اليهودى كيستلر ، وعدنا للمنطق الخالص ، فإن عددا كبيرا من اليهود - بل الغالبية - قد تحولت فى خاتمة المطاف للمسيحية والاسلام ، وبذا يكون بين المسلمين والمسيحيين من دماء يعقوب ( اسرائيل ) أكثر بكثير مما فى دماء يهود اليوم من دمه عليه السلام ، وقد لاحظ الأرشيدوق ونفس فى أكثر من موضع فى رحلته تلك أنه رأى فى كثير من البدو والعرب المزارعة فى مصر وفلسطين الملامح نفسها التى لليهود ، . . بل انه عندما واجه بعض مظاهر الغش واللؤم عند العرب أرجع ذلك لقربهم لليهود ، قد يكون مخطئا فى هذا لكنه على أية حال رأى فى «سحن العرب ولامحهم شيئا غير بعيد عن أبناء يعقوب» - ( المترجم ) .

(\*) لم ينكر المسلمون على اليهود أى غيرهم فى أية مرحلة من مراحل التاريخ حقهم فى الوجود ، بل لقد أصبح المسلمون هم الذين يطالبون بحقوقهم فى الوجود ، وقد أورد الأمير ودولف فى أكثر من موضع فى رحلته هذه أنه وجد اليهود وسائر الطوائف الدينية تحظى بحرية كاملة فى ظل الدولة العثمانية ، وأن الجندرية ( جنود الدرك الأتراك ) كانوا ينسبون لكل طائفة ومذهب أداء شعائرها بحرية كاملة ، ويرجع ذلك الى أن الاسلام دين يضم بين جناحيه كل المبادئ الأساسية للاديان السابقة عليه بشكل بعيد عن الشرائع - ( المترجم ) .

لقد خرجت المسيحية من العقيدة اليهودية وأخذت من مخزون حكمتها ، فلم تكن تعاليم المسيح ( عليه السلام ) لتثمر الا فى أرض كفلسطين لا مكان لها الا فى الشرق ، وان كانت المسيحية جديدة فى كثير من وصايا وتعالمها الأخلاقية precepts ، الا أنها فى أصولها ووجودها ليست الا تكملة للديانات الشرقية القديمة • والمسيحية التى انتقلت للغرب واستمرت حتى أيامنا هذه تجد مولد أفكارها الأساسية دائما فى الشرق • وقد أمكن للإسلام أن يحافظ على الديانات السامية Semitic الشرقية القديمة فى أنقى صورة وأكثرها بعدا عن الخرافة •

The ancient Eastern Semitic religions have been preserved in their purest and most incorrupt form by Islam.

فلأن الإسلام متبثق عن هذه الديانات السامية القديمة ولأنه لم يهدف الا أن يكون استمرارا لها بين الأجناس نفسها — فقد استطاع — لهذا السبب — أن يكون له السيادة فى هذه المناطق وأن ينتشر منها الى شعوب كثيرة مختلفة ، وقد أدى هذا الى أن يكون الشرق ثابتا (لم يلحقه تغيير) كجنس بسبب عقيدته • فإبراهيم الخليل old Abraham لم يمت ، فاليهودى المجد الشغوف بالمال acquisitive المذكور فى التراث القديم لازال موجودا • وفى المدن يؤاخيهِ العرب ( هم أخوة له ) ، وكل الأسرات السامية التى بقيت فى ديارها القديمة (بلادها الأصلية) مستمرة فى ( ممارسة ) طريقته القديمة ( فى الحياة ) • In the towns the Arabs are his brethern. and all the Semitic families who remain in the old home Continue in the ancient way.

## الشيخ على علي ضفاف الأردن :

ويقطن الشيخ على في السهول الواسعة على طول الأردن في آلاف من الفرسان الذين يتحركون بحرية ولا يضبطهم ضابط ، وتتكون ثروته من قطعانه ومساكنه ونسائه مستمدا قوته من حكمته وما لديه من كتب في العقيدة والشريعة ، ثمة - اذن - ملك بدوي عجوز على رأس شعب من سلالته . وقد أخبرنا الكتاب المقدس عن حالات كهذه . ففي الشرق لا شيء يموت . فالثورات المحمومة في الغرب تمر دون أن تترك أثرا ، أما في الشرق فكل شيء كما كان منذ عصور بعيدة وسيظل الشرق على هذا النحو ما ظلت الشمس تشرق كل يوم ، صابغة بلون أرجواني التلال الجرداء والصحراء البرتقالية وسهوب الشرق الشاسعة ، ملقاة بلونها الذهبي على الأرض المجيدة - مهد الجنس البشري .

أمل أن يعذرني القارئ لهذا الاستطراد ، لأن هذه الأفكار تفرض نفسها على المسافر الذي يصل للمرة الأولى إلى الأرض الموعودة promised land .

كان المنظر الذي تبدي أمامنا ونحن على درجات ميناء يافا متألقا وجديرا بريشة فنان . وكانت كل الشرفات والمدرجات والدرجات ( السلالم ) والنوافذ الضيقة غاصة بالبشر . والملابس هنا أكثر ثراء في الألوان وأكثر لفتا للمنظر من الملابس في مصر ، فملابس آسيا الصغرى والملابس التركية وملابس اليهود ذات الطراز القديم ، كل ذلك يمكن رؤيته هنا . أما قمصان ( جلابيب ) الفلاحين الزرقاء والطواقى البنية فلم نعد نراها في الشوارع هنا ، ولم نعد نرى - كما كنا نرى في مصر أشباه العراء ، كما لم نعد نحس بما أحسسنا به في مصر من الفوضى ( قلة النظام ) . والأثواب ( القفاطين ) الغامرة الواسعة المثبتة بأحزمة عريضة بهيجة ، والعمائم الضخام - والطرايبيش أحيانا ، والجاكتات Jackets أو السترات القصيرة المزينة بالفراء والشبيهة



بالمعاطف والسراويل التى تغطى الركبة ، والنعال الحمر -  
كل ذلك هو أهم ما يلفت النظر فى ( هذا ) الساحل الآسيوى -  
وبين أبناء آسيا الصغرى الأصلاء الذين يقيمون هنا ، وكذلك  
بين الدروز تشيع الأزياء التى تذكر المرء بأزياء شبه جزيرة  
البلقان •

أما النسوة فيلبسن ملابس واسعة - جذيرة بالتصوير -  
ويضعن ملاءات بيضاء وأغطية وجه ( حجابا ) بيضا أيضا  
- ويختلف لباس النساء هنا تماما عن لباس نساء مصر -  
ودى يانا عدد كبير من المسيحيين واليهود ، لذا فقد رأينا  
عددا من المسيحيات واليهوديات يرتدين ملابس تدل على  
الثراء - يسرن فى الطرقات ، ومعظمهن محجبات حجابا غير  
مبالغ فيه ، وبعضهن دون حجاب على الإطلاق ، لذا فقد أمكننا  
ملاحظة كثير من الوجوه الجميلة . بل حقا لقد رأينا بينها  
وجوها نبيلة : أبشرة بيضاء متألقة وشعر أسود فاحم !؟  
لقد كان هذا مما جذب أنظارنا • وبشكل عام فالبشرات فى  
فلسطين خالية من العيوب خاصة فى المدن - أحيانا تميل  
للمصفرة ، لكنها نادرا ما تكون داكنة أو سمراء ، فهذا اللون  
غير موجود الا بين بعض القبائل البدوية خاصة الجنوبي منها •  
**كنيسة يافا :**

لقد كانت النظرة الأولى على البشر بشياهم البهيجة  
المتألقة تعطى احساسا شائقا ، وقد صعدنا الدرجات  
( السلالم ) ببطء فى طريقنا الى دار الضيافة اللاتينية  
( الكاثوليكية التى تتبع الطقوس اللاتينية ) Latin hospice  
ويختلف العساكر الأتراك بزيهم الأخضر - ولهم مظهر  
مقاتلى آسيا الصغرى - من كل الوجوه عن المصريين ، وقد  
أخلى لنا هؤلاء العساكر ممرا لنمر ، لأن الناس قد تزاحموا  
حولنا تزاحما شديدا وقد اعتراهم الفضول وحب الاستطلاع ،  
ودلفنا للكنيسة عبر منزل وصعدنا وهبطنا عددا كبيرا من  
السلالم ( وليس درجات السلالم ) • وكان الطريق اليهنا

صعبا وقذرا ، وكان علينا أن نمر خلال جو خائق مششبع بالروائح المرعبة والمقرفة . الكنيسة قديمة لكنها غير جميلة وليس فيها ما يجذب ، وعند دخولنا قبلنا صندوق الذخائر المقدسة the relics ونصيحونا أن نتلو الدعوات (١) نسودي الصلوات ( ونحن ممددون على الأرض ، انك ترى في كل خطوة في الأرض المقدسة مواضع مرتبطة بالحكايات المقدسة Sacred legends ، وفي يافا بعض من هذه المواضع . لقد أيقظت الكنيسة المظلمة ، التي تعود للعصور الوسطى ، وضوء المشاعل المتراقص ، وتراويل الفرنسيين الذين تلوها بصوت أجش ، وصوت الأرغن ، وكل ما على أرض فلسطين — أيقظ كل ذلك الأفكار التي سادت أيام الحروب الصليبية عندما أقبل مقاتلون شجعان (٢) من الغرب البعيد ، حيث تم منحهم البركة هنا للمرة الأولى على الأرض المقدسة — قبل أن يهب ابن الصحرَاء الباسل الفخور ليدافع عن أرض آبائه ضد الغازي الأجنبي .

(\*) نفضل هنا أن ننقل من بعض المراجع الأجنبية ما يبين الأبعاد الحقيقية للحروب الصليبية ، يقول أرنست باركر Barker ( ترجمة السيد البار العريني ) :

« منذ سقطت بيت المقدس في يد جيوش عمر بن الخطاب سنة ٦٣٧ م . وكان الاتصال المستمر بين الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس وبين المسيحيين في الغرب وبقاؤه نشيطا لقرون عديدة ، ألما يرجع الى تسامح الفاتحين المسلمين ، والمعروف أن شارلمان — بصفة خاصة — كان وثيق الصلة ببيت المقدس . . . . . وظلت الصلة بين الغرب وبيت المقدس بلا انقطاع حتى القرن الحادي عشر الميلادي . . . وفي سنة ١٠١٠ دمر الحاكم بأمر الله الفاطمي كنيسة القيامة وأنهى حماية الفرنجة لها . وانتقل الى المسيحيين البيزنطيين سنة ١٠٢١ أمر رعاية الأماكن المقدسة ( المسيحية ) التي ظلت مصدر نزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية حتى بداية حرب القرم في منتصف القرن التاسع عشر للميلاد . وترتب على ذلك أن صار قدوم الحجاج من الغرب أمرا شاقا وعسيرا ، فالبيزنطيون ، لا سيما بعد حدوث الانشقاق الديني سنة ١٠٥٤ لم يحرصوا على جعل طريق الحج سهلا ميسورا ، وكان لزاما على البابا فكتور الثاني أن يجار بالشكوى الى الامبراطورة ثيودورا . . . . . ونخلص من هذا النص وأمثاله أن الحروب الصليبية كانت في جانب من جوانبها ، وفي مرحلة من مراحلها — نوعا من الصراع المسيحي المسيحي ، وليس المسيحي الاسلامي . لقد كانت صراعا بين الكنيستين اليونانية واللاتينية للسيطرة على الأماكن المسيحية المقدسة وفي ثانيا رحلة الأرثوذكس يلتمس انقراضه بنفسه أن هذا الصراع ظل موجودا حتى بعد منتصف القرن التاسع عشر ( زمن رحلتنا هذه ) .

ومن أسباب الحروب الصليبية أيضا كما أشار باركر « حرص الكنيسة الكاثوليكية على تحقيق حلمها بقيام كنيسة عالمية تخضع لسلطانها ... وقد أطلق رجال الدين اسم الحروب الصليبية على هذه الحروب ، لتبرير المصالح والمطامع التي حدث أن اتفقت على ما اختاروه من وسائل ، على الرغم من أن هذه الحروب انطلقت لتحقيق أغراض مخالفة لأغراض الكنيسة ، مثال ذلك ما كان من طموح الأمير المغامر والابن الأصغر ( أجريستارد ) الحريص على أن يقيم لنفسه إمارة في الشرق .. ويعتبر بوهمند من هذا الطراز ، وثمة أيضا مصلحة المدن الإيطالية التي حرصت على أن تحصل على منتجات الشرق بسعر رخيص وبطريق مباشر ... والنوع الأول الذي يمثل بوهمند المطامع في تأسيس إمارة في الشرق يعتبر القوة المحركة التي كفلت النجاح للحرب الصليبية الأولى ... بينما النوع الثاني ( الذي تمثله مصلحة المدن الإيطالية ) يعتبر الحليف القوي المتين الذي بفضل وحده استطاع بلدوين الأول وبلدوين الثاني أن يقيما مملكة بيت المقدس ... للحماس الديني المضطرب غير المظم لم يكن له في الحروب الصليبية إلا تأثير ضئيل بل يكاد لا يكون له أثر إطلاقا ، أما الحماس الذي اتخله ووجهه الترمالي الماكر والبنديقي أو الجنوي الذي لا يقل عنه مكرا فهو الذي أدى إلى نتائج ثابتة ، والواقع أن إنشاء الإمارة أو إقامة المستودع لم يكن إلا من أغراض الأمير أو الناجر .. وليس معنى هذا إنكار العامل الديني ، غير أنه ينبغي أيضا التسليم بأن شيئا من الأغراض الدنيوية اجتذب إلى الحروب الصليبية جوع الدماء ، فما حدث في مواطنهم من المجاعات والأوبئة دفع الناس إلى الهجرة إلى الشرق ابتغاء الخروج من الضيق ، وأملوا في الخلاص منه ، ففي سنة ١٠٩٤ وقع وباء انتشر من أفلاندر إلى بوهيميا ، وفي ١٠٩٥ حدثت مجاعة في اللورين ، فلا عجب أن تدفق نحو الشرق سيل من الهجرة مثلما يجري في الأزمنة الحديثة من الانسياب نحو منجم من مناجم الذهب جرى اكتشافه حديثا ، وهذا السيل اشتهر بما يحمله في ثنايا المياه العكرة من الوسخ الزائد والأفاعيل والمفلسين والأكفون ... ومع هذا فقد ألقى البابا إيريان الثاني في كليرمونت إلى الجنوب من فرنسا بعد الحملة الصليبية الأولى جاء فيه أنه ينبغي تجريد جيوش المسيحيين لقهر المسلمين ... وكانت الحروب الصليبية في بدايتها مشروعا فرنسيا ، والمملكة التي أقامها الصليبيون بالشرق كانت أيضا في جوهرها مملكة فرنسية في لغتها وعاداتها ورجالها وفضائلها ، ومن الطبيعي أن تكون فرنسا مهدا للحروب الصليبية ؛ لأنها كانت ... تستطيع أن تقدم من النبلاء الأقطاعيين حشدا لم يكن شديد الارتباط بسلطانها في المجتمع ومستعدا لأن ينطلق في مغامرة كبيرة ، بالإضافة إلى أن فرنسا قاست كثيرا مما وقع بها من المعارك والحروب ، وعانت مما حدث بها من الويام والمجاعة ، فالهروب في هذه الأحوال إنما يلقي ترحيبا .. على أن الحروب الصليبية لقيت عند النورمان بصفة خاصة قبولا طيبا .. فقد اشتهروا منذ القدم بحبهم للحركة والانتقال .. وقد استطاعوا أن يجدوا لهم منفذا في حماية موجهة لبيت المقدس ... والحروب الصليبية تتفق آخر الأمر مع تلك النزعة في امتلاك أراض جديدة .. وهي من خصائص الأمراء الترمانيين ... أما ألمانيا ، فإن ما أصابها من التمزق بسبب الحروب الداخلية .. جعلها تسفر من الصليبي ... لكتفي بهذه الاقتباسات المعبرة التي كتبها مؤلف غربي . ص ١٤ - ٢٤ - ( المترجم )

وبعد ان منحنا البركة وانتهى العزف الموسيقى اتخذنا  
سبيلنا خارجين بصعوبة بين جحافل المتطقلين المحملين الذين  
احتشدوا فوق السلالم وفي الممرات الضيقة ، وكانت غرف  
هذه الكنيسة - التي تشبه الأقبية - غير جارية الهواء ، كما  
كانت رائحتها كريهة ، وفي هذه الغرف يسكنون ، وهي  
بمثابة منزلهم أو ديرهم أو كنيستهم . فليحذر أى انسان  
من أن يكون تحت سقف وهو فى فلسطين خاصة فى فصل  
الربيع .

كانت خيولنا عند البوابة . وكان من الصعب ان تسير  
قافلتنا متجمعة معا وسط هذا الزحام من البشر الشرقيين  
- وكان بينهم عدد من اليهود - الذين احذونا جذبنا  
وضوضاء . واخيرا فتحت لنا فرقة من الخيالة التردنية  
الطريق فسرنا يتبعنا خدما ، والعساكر من خلفنا . وبهذا  
النظام سرنا راكبين خلال بعض الشوارع المرصوفة بملاط  
رقيق بدلا من الاجبار ، ومررنا بسوق خارج المدينة تعج  
بالقاذورات وكان الطريق فى بدايته يمر بين بساتين وتحف  
به أشجار كثيفة وحدائق يرتقال ثمرة ، كانت تشن تحت  
حملها من الثمار . الفارق بين مناخ الساحل المصرى ومناخ  
ساحل فلسطين واضح تماما .

ففى نهاية فبراير شاهدنا جمع البرتقال فى القاهرة  
أما فى يافا ، فان جمع البرتقال لم يكن قد بدأ حتى نهاية شهر  
مارس ، وسرعان ما اختفت من أمام أنظارنا البساتين  
العطرة ، ودخلنا فى سهل رتيب تتناثر فيه الخضرة الداكنة ،  
ولم نر فيه الا حقولا لم تزرع بطريقة جيدة ، ويثرا تسحب  
منها المياه وقليل من التخيل ومواضع حجرية ومقابر للمسلمين  
غير منظمة ، ورأينا على البعد على حافة المشهد القاحل القمم  
الزرقاء لجبال يهوذا Judaea . ولم نقابل بشرا سوى  
الفلاحين بملابسهم البهيجة يرعون قطعان الجمال والماعز ،  
كما رأينا متسولين هم أسوأ متسولين رأيتهم ، فهم أسوأ

— حتى — من مسئولى مصر ، لقد أصيب بعضهم بشلل يشع .  
أبشع أنواع الشلل الذى يمكن تخيله ، وكثيرون منهم مصاب  
بجذام حقيقى كالذى جاء وصفه فى الكتاب المقدس .

والزروع فى الحقول تفتقد اللمسة المدارية التى فى  
زروع وادى النيل ، فأنت فى حقول فلسطين قد تظن أنك فى  
حقول أوربية . الحق أن كل شيء تركناه وراءنا لم يعد له  
وجود ، ورأينا كثيرا من طيور اللقلق (بتشديد اللام وفتحها)  
واقفة فى الحقول لكن مظاهر الحياة الحيوانية الأخرى  
قليلة .

وسرعان ما وصلنا الى بعض القرى الصغيرة البائس  
منظرها .

### الرملة ولترون :

ومررنا أثناء الطريق بمقابر وأبراج مراقبة لعساكر  
الدرك الأتراك (الجندرمه Gendarmerie ) ، وفى غضون  
ثلاث ساعات وصلنا لمدينة صغيرة ، هى مدينة الرملة ،  
Ramleh وهى مدينة مهدمة وقذرة قذارة لا توصف ،  
فما كان من قافلتنا الا أن التفت حولها ، وهذا هو الوضع مع  
أنها عادة ما تكون المحطة الأولى فى طريق المقدسين الى بيت  
المقدس ( الحجاج الى بيت المقدس ) . ولم نكن راغبين فى  
التوقف بالقرب منها ، ورأينا أن نجد فى السير الى قرية  
لترون Latrun التى تقع عند سفح الجبل .

وقد ظهر سكان الرملة على مدى البصر بملابسهم اليهودية  
القديمة المبهجة ، أما المسيحيون القليلون القاطنون فيها  
(الرملة) فهم — فى الأساس — تابعون للكنيسة الأورثوذكسية  
اليونانية ، وتدفق سكان المدينة خارجين منها ليحملقوا فينا  
وتبعوا قافلتنا لفترة طويلة .

وبعد أن ائتمدنا عن الأراضي المجاورة للرملة ، بدأت شخصية المنطقة تلبس لبوسا آخر ، فقد بدأ الطريق يهبط بنا رويدا الى الأسفل من التل ليفضى الى واد عريض ترتفع الجبال من عند طرفه البعيد ( طرف الوادى ) . وكانت الحقول مغطاة هنا وهناك بالأحجار وتبدو قطع الأحجار المصقولة اللامعة واضحة بين الأشجار الدائمة خضرتها . وبالقرب من مقبرة أحد الشيوخ ( الأولياء ) أطلقت طلقتين ناجحتين مكنتان من اصطلياد طائرين من طيور الجبل جميلين ، وأرجلهما طويلة حمراء . وبعد غروب الشمس مباشرة وصلنا لقرية لترون Latrun الواقعة بين الصخور والشجيرات دائمة الخضرة عند سفح سلسلة التلال . ان منظرها جدير بالتصوير . وأقمنا معسكرنا الجميل بالقرب من بقايا قلعة قديمة يصعب تحديد تاريخ بنائها . لقد كان معسكرنا مدينة خيام تركية بكل ما فى الكلمة من معنى ، وكانت الخيام مصنوعة من مواد جميلة وزودت بكل ما هو مريح . ولم يكن من الممكن الا أن نتذكر أيام سليمان المجرب Old Soliman وتوفرت فى معسكرنا دواب التحميل ، معظمها بغال أو خيول صغيرة أما خدم الضيافة فدروز من لبنان . والدروز هم عبدة الشمس Sun-Worshippers ) فتشبهوا بمواقعهم بالقرب من المعسكر بين الصخور .

والسيد هوارد Howard الذى يعمل كممون ، كان قد قبل أثناء حياته دائمة التغير اسما انجليزيا كما قبل الحماية الانجليزية — مع أنه شرقى صميم ، داكنة بشرته ، وهو يعيش كمترجم ومقاول لتمويل القوافل والرحلات بالمؤن ، ومقره بيروت . وقد تعلمنا أن نقدر جهوده الدعوية وصفاته الممتازة فى الأيام الصعبة التى ألقينا فيها واجبات ثقالا عليه . وقد ألحق السيد هوارد بالقافلة اثنين من البدو، أحدهما بربرى a Moor خطف وهو صبى فى أفريقيا وهو الآن يتجول مع قبيلة عربية آسيوية ، والثانى بدوى أردنى

أصيل له ملامح أوزبكية واضحة - وذلك ليحفظا لنا الصندوق  
المخصص لحفظ طيور الحجل - وكان كلا الرجلين يرتديان  
عباءتين بيضاوين مخططتين سميكتين من أوبار الجمال -  
وهذا النوع من العباءات هو المعتاد بين القبائل الآسيوية -

وقد خرجت مع عمى مساء بصحبة هذين البدويين لتبحث  
عن حيوانات ابن اوى ، وتجاوزنا القرية وعبرنا الاسوار  
وسياج الأشجار ووصلنا الى بركة ماء - مع اننا سمعنا  
اصوات ابن اوى تاتينا من بعيد ، الا اننا لم نر ايا منها قبل  
اطباق الظلام خاصة ان القمر لم يكن له وجود - فعدنا نسمع  
سالكين الطريق نفسه الذى لم يكن مريحا حتى وصلنا  
لمسكرنا - ووقفت بعض الأشباح خارج لترون Latrun  
تراقبنا بيقظة -

ويقال ان اسم هذه القرية قد اشتق من الكلمة اللاتينية  
Latro ، وانها كانت مسقط رأس اللص التائب ديسماس  
Dismas ، كثيرا من التراث يرتبط غالبا بكل قرية  
هنا ، وبعض حكايات هذا التراث جميلة وجلييلة وهناك  
ما يبرهن على صدقها ، لكن كثيرا منها لا يمكن تصديقه  
البتة -

وعندما عدنا لمسكرنا وجدنا عشاء كاملا فاخرا فى  
خيمة الطعام الواسعة ، وبعد القهوة التركية مباشرة نعمنا  
بنوم مريح -

وفى صباح اليوم التالى استيقظنا جميعا مبكرين ، فجمعت  
الخيام وحملت فوق البغال وبدأت القافلة فى الحركة ، مصحوبة  
بصهيل الخيول ورنين أجراس البغال وصياح الذين يقودون  
هذه الحيوانات ، وفى البداية كان الطريق يخترق واديا  
ضيقا تغطى المنحدرات التى تحفه صخور وشجيرات دائمة  
الخضرة ، وطبيعة الحياة النباتية فى هذه المناطق ، هى طبيعة  
الحياة النباتية فى منطقة البحر المتوسط ، فهى كالتى يلقاها

المرء في سواحل اسبانيا واليونان وايطاليا والمناطق الغربية من الشمال الافريقي خاصة مراكش \* وفي فلسطين ، فان هذه المنطقة النباتية ( نطاق نباتات البحر المتوسط ) ضيقة وتختفى بالتدريج عند الوصول للقدس ، والى الشرق من بيت لحم Bethléhem تحل منطقة الاستبس النباتية التي تتميز وسط آسيا محل منطقة نباتات البحر المتوسط \* .

### بير الجب وما بعده :

وبعد ان تجاوزنا بير الجب Bir-Egyub ( بضم الجيم وتسكين الباء ) القديم ، مررنا عبر وادى على بالقرب من بقايا مسجد قديم الى حيود ( حروف ) التلال وكان منظر هذه التلال نمطيا متشابهة فلا شيء أكثر من صخور بيضاء لامعة يفصلها عن بعضها وبعضها الآخر أشجار شوكية \* وتبدو لنا هنا وهناك منازل آيلة للسقوط أو خرائب بين الصخور ، ولم نر الا قليلا من الجروف ، وان كنا رأينا كثيرا من الألواح الحجرية الناعمة تماما على منحدرات التلال \* .

وراح عدد كبير من النسور والصقور يحلق في الهواء وراحت تطلق أصواتها المميزة ، لكننا لم نر فوق الشجيرات ولا بينها الا القليل من الطيور ، وبين الحين والحين كنا نرى طيور الحجل ، تجرى برشاقة صاعدة المنحدرات ، وبعد ساعتين من الرحلة حاولنا التسلل للامساك بالأياثل ، deer-stalking على قمم التلال ، مصحوبين بالعرب الذين يعملون كمساعدى صيد لنا \* .

ولما صعدنا التلال تكشف أمامنا منظر الوديان والمسيلات ، وهو منظر جميل ، وظهرت لنا الحياة النباتية نفسها التي وجدناها في جبال زانطة Zante . وبعيدا الى الشرق رأينا قمم الهضبة التي تقع عليها القدس ، وكذلك بعض منحدرات .



هذه الهضبة ذات اللون الأصفر الداكن ، كما رأينا بداية سلسلة التلال الداخلية وهي مختلفة تماما .

وسرعان ما عدنا الى طريق القافلة فالسير بين الصخور والكتل الحجرية والشجيرات الغاصة بالأشواك التي يصعب اجتيازها أو التوغل فيها ، كما أننا لم نجد طيور الحجل ، أما الطيور المارحة التي كانت لا تكف عن التحليق فلم تسمح لنا بالاقتراب منها \* ولما عبرنا الحيد ridge ، بدأت المنطقة أكثر بؤسا وخرابا فقد أخلت الشجيرات الخضراء مكانها للحشائش الجافة ، وتخلت الصخور عن مكانها للأحجار المكسرة ، وامتد الوادي العريض أمامنا وانحدر الطريق اليه متعرجا كشعبان .

#### استراحات المقدسين ( الحجاج ) :

ومررنا بخانات المقدسين ( زائري القدس ) ، وكانت مهدمة خربة كما مررنا بعدائق الزيتون التي ذكرتها بشوندات fondas الجبال الاسبانية ، ورأينا قرية أبو جوشى Abu Gosh التي كانت تقطنها في بداية هذا القرن أسرة شيخ يحمل الاسم نفسه وكانت تسبب رعبا للحجاج \* وبعد ذلك رأينا على البعد قرية (؟) Soba وهي مدين (؟) Modin القديمة موطن المكابيين Maccabees (٣) .

#### خرافات يهودية مقترزة :

وتعلق بعض الحكايات اليهودية بكل خطوة ، وكان على — مثلى في ذلك مثل المسافرين الآخرين — أن أستمع اليهم لكننى كثير الشكر ( لله ) لأبني بسيت معظم حكاياتهم وأحيل القارئ المتسامح الى تجرع جرعات من الدواء الذى يتجرعه

(\*) نسبة الى يهوذا المكابي الذى قاد حركة لطرو اليونانيين من اورشليم ( القدس ) في الفترة من ١٦٦ الى ١٦٠ قبل الميلاد . انظر : ايلفس العارسيق للكتاب المقدس ، نشر دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط - القاهرة ، ١٩٩٤ - التعليق على الخريطة رقم ١٧ .

مرضى الهوميو homoeopathic فهو - رغم بشاعة مذاقه -  
يمكن تحمله اكثر مما يمكن تحمل حكاياتهم \*

وفى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وصلنا بعد رحلة  
طويلة لباطن وادى Kuloniye العريض وتقع قرية على  
سطح التل تحمل الاسم نفسه ، وفى ادنى منطقتها فى الوادى  
يوجد فندق اوربى من طابق واحد ، استقبال المقدسين ( حجاج  
بيت المقدس ) \* وفلسطين ارض مألوفة للسائحين ، فعلى طول  
الطريق تجد فوافل الحجاج الى بيت المقدس \* ان فلسطين -  
والامر كذلك - مثل سويسرا لكنها منتجع دينى ان صح  
التعبير \*

ففى سويسرا يستغلون السائح الراغب فى الاستمتاع  
بالجمال ، وهنا يستغلون ايمانك واعتقادك ليحولوها الى  
مال \*

لقد توقفنا فى Kuloniye لأن وصولنا للمقدس سيكون  
... كما حدد - بعد الظهر ، ورحنا نضيع الوقت بين توقفنا  
والوقت المحدد لدخول القدس فى التجول عند سفوح التلال ،  
ولم نر الا بساتين زيتون داكنة خضرتها فوق مدرجات التلال  
وأحيانا شجيرات وصخورا ، وقد سفعت شمس منتصف النهار  
المعارقة. وجه المنطقة القاحل ، وقد سحبتنا أنفسنا بشق  
الأنفوس لنصعد بعض المنحدرات الشديدة فلم نر من الحيوانات  
البرية الا حيوان كسار البندق nutcracker والأرنب البرى  
السورى الداكن - وأطلق الدوق الكبير النار على هرة بأنة puss  
لكنه لم يجدها بين الصخور ، ولم يكن هويوز Hoyo  
أفضل حظا مع الضباع فى الجانب الآخر من الوادى ، أما  
بالنسبة لى فقد أطلقت بندقيتى على بعض السحالى الضخمة  
السوداء البغيض منظرها ، وهى متوفرة عند كل صخرة فى  
المناطق الصخرية بفلسطين \*

أصبحت الحرارة لا تحتمل فعدنا جميعا بسرعة الى خان  
المقدسین ( الحجاج ) ، وتناولنا افطارنا فى ظل شجرة زيتون  
الوارد ذكرها فى البقعة التى تقع فيها عمواس Emmaus  
فى العهد الجديد بالقرب من البقعة التى قتل فيها داود  
David لـلـوت Goliath . وكان قنصلنا العام الكونت  
كابوجا Count Caboga قد خرج من القدس ليقابلنا  
وناقشنا معه بشغف خططنا لليوم التالى \* وبعد الانتهاء من  
الافطار لبسنا جميعا ملابسنا الرسمية كاملة full uniform  
والتقى بنا هنا رجال الدين من كل المذاهب المسيحية  
والمترجمون من القنصليات ، ومن ثم اتجهوا معنا للقدس  
( الشريف ) حيث الاستقبال الكبير فى انتظارنا .

#### الى القدس الشريف :

الطريق متعرج على طول المنحدر التلى الواقع فوق الهضبة  
وبدأت الشجيرات وكل آثار الحياة النباتية تختفى رويدا  
رويدا حتى انعدمت وبدأت الصخراء الصخرية المقبضة - انها  
الأرض الكريهة (\*) ان المرء لا يستطيع أن يبعد نفسه عن  
هذا الشعور . ان المنطقة كلها تبدو - على نحو فريد -  
حزينة ، لكنها عظيمة فى الوقت نفسه ، وتأخذ بتلابيب المرء  
مشاعر غريبة خفية غامضة .

المقدسون ( الحجاج ) من كل صقع وكل طبقة راكبين  
حميرا أو حناطير ( عربات تجرها الدواب ) - كثيرون منهم  
رجال تعسون men of ruined fortunes - وهناك اليهود  
أيضا الذين أتوا من أقصى بقاع العالم ، وقبل أن نصل الى  
قمة الهضبة أقبل اثنان من الفرنسيسكان Franciscans  
يهرولون نحونا ، أما الأول فهو راعى تراسانتا Terra Santa  
وهو راهب سمين ذو لحية سوداء ضخمة الجثة مقع بالخيوية ،

(\*) النمر The accursed land ( المترجم )

ولد في تسكانيا ، وقد ذكرني منظره بأبطال العقيدة  
( المسيحية ) البواسل الذين سبقوا الصليبيين ( المقاتلين  
الصليبيين ) في المعركة حاملين الصليب عاليا وحائين الفرسان  
على الأعمال البطولية ، أما الثاني فهو من بوهيميا Bohemian  
وقد بذل غاية الجهد ليسيطر على بهجته وهو يتحدث معنى ،  
لأنه الآن سيتحدث بلغته الأصلية للمرة الأولى منذ عدة  
سنوات . وقد حيانا الراهبان بحرارة وسارا في ركبنا .  
والفرنسيون في الأرض المقدسة هم المثلون - بكل ما في  
الكلمة من معنى - للكنيسة الكاثوليكية Latin Church ، وهم  
مقاتلون شجعان يدافعون عن عقيدتهم وهم يدافعون عن  
حقوق المقدسين ( الحجاج ) الفرنسيون أمام أصحاب  
المذاهب والمقائد الأخرى .

لقد تسلقنا التل فامتدت أمام ناظرينا هضبة القدس  
القاحلة ، وعلى البعد بدت لنا جبال وادي الأردن زرقاء  
مخضرة ، وكانت السنة العامة للمنظر هي القحولة وكان  
اللون الأصفر الداكن هو السائد ، وألقينا نظرتنا الأولى على  
القدس : المبنى الضخم للكنيسة الروسية بقبابها الخمس ،  
جبل الزيتون ، وإلى اليمين دير الصليب اليوناني . لم نستطع  
حتى الآن رؤية المدينة نفسها .

وفي الطريق قوس نصر ضخم يحمل كتابات مجرية  
(هنجارية) ، وقد وقفت جماعة من اليهود إلى جوار قوس النصر  
هذا حاملين الشعارات ويغنون النشيد الوطني . وقد أحاط  
بنا يهود بلادنا ( مواطنونا من اليهود ) وراحوا يمتدحوننا ،  
ويتحدثون إلينا الأحاديث المعتادة محدثين جلبة . لقد كانوا  
إسرائيليين حقيقيين من شمال المجر . وكان الواحد منهم  
يلبس قفطانا Caftan وحذاء عاليا ، وطاقية من المخمل

velvet cap. وللواحد منهم لحية مفتولة \* يمكنك أن تتصور نفسك فى قرية كارباثية Carpathian Village

وتبعتنا جماعة اليهود هذه عند مواصلتنا السير ، وكان الطريق - على الجانبين - مزدحما بالناس : يهود من كل البلاد ، مسيحيون من آسيا الصغرى ، يونانيون ، مقدسون ( حجاج ) أوروبيون ، نساء مسيحيات شرقيات بعضهن بغير حجاب وبعضهن معجبات جزئيا ( حجاب غير كامل ) ، وأكثر البسة النساء لفتا للنظر هو لباس اليهوديات المعجائز ، وبالإضافة لهؤلاء هناك القبط والسائحون الانجليز بمنظرهم الخارجى غير المهندم أبدا ( كأبيات الشعر غير الموزونة ) والمسلمون من البلاد المختلفة والمتسولون المشلولون والعرجان وخليط يستعصى على الوصف من كل أنحاء المعمورة - كل أولئك يتسكعون فى الطرقات بلا هدف وينظرون اليينا بفضول \*

### كنيسة القيامة ومسجد عمر :

وتوقف الموكب فى صف ( طابور ) منتظرا وصولنا للنقطة التى يتحتم على المرء أن يدخل بيت المقدس منها ، فمسجد كل شخص ليصلى برأس عارية ، وأصبح أمامنا بيت المقدس The Holy Zion بحوائطه القديمة وقباب كنيسة القيامة Church of Sepulchre ومسجد عمر الفخم \*

انها مدينة القدس التى ولدت فيها عقيدتنا (المسيحية) التى بدأت منها أعظم التحولات فى تاريخ العالم مع صلب (\*) المسيح ( عليه السلام ) ، انها المدينة التى ترتبط بجدرانها آلاف القصص التى وردت بالانجيل والتى يلتصق بها كل

---

(\*) من الملهوم أن المسلمين يرون أن المسيح عليه السلام قد رفعه ربه الى السماء - ( الترجمة ) \*

تراث ديننا ( المسيحى ) • انها المدينة التى تطلعت أحجارها  
بدماء أجدادنا ، الصليبيين الأول - انها القدس ها هى ذى  
أمامنا • ان عاطفة غريبة جياشة وحماسا دينيا فائقا يمتلك  
روح كل حاج ( مقدس ) هنا ويجعله على شفا التعصب drug  
him near to fanaticism وقد بدا ذلك لى مفهوما ، لأن  
القدس صلت لعدة قرون - وستظل الى الأبد - مركزا لأشد  
أنواع التعصب • فعصيدتنا وكل التراث الذى تشريناه منذ  
عهد الطفولة قد انبثق ( الآن ) ليتخذ له شكلا ووجودا يحيط  
به عالم من الغموض والجهامة ، محمل بلعنة تطحن كل من  
يعيش فى هذه المدينة وتسحقه سحقا الى الأبد • فإى شخص  
يعيش فترة طويلة فى القدس لابد أن يصبح متعصبا ، فمنذ  
اللحظة الأولى التى يرى فيها المرء هذه المدينة يدخل منطقة  
من الهوس الغامض قد تسيطر على عقله سيطرة دائمة ، تلك  
هى المشاعر التى جعلت الصليبيين Crusaders يوجهون  
كل طاقتهم اليأسية لكل الحروب الدينية ، مع أن هذا ثان  
يتعارض مع مصالحهم أو حياتهم •

دعنا الآن - على أية حال - نعد لدخلنا • لقد ركب  
بعض جنود السوارى التسابعين للقنصلية حاملين هراواتهم  
الطويلة فى المقدمة ، وكان لباسهم المميز ذا طابع مسرحى ،  
وخلفهم كتيبة من المشاة الأتراك مع فرقته الموسيقية • كان  
خليطا مدهشا - موكب فى القدس بموسيقا تركية وعلم  
الهلال الفضى يحلق ! ، ثم أتى دورنا خلف هذه الكتيبة  
التركية ونحن فى ملابسنا الرسمية كاملة ، يحيط بنا الكهنة  
ورجال الكنائس وموظفو القنصليات وأصحاب المقام الرفيع  
من الأتراك والمسيحيين • وحفت الشوارع بجموع مزدحمة ،  
ومن الموكب بمبنى ضخم يقيم فيه المقدسون ( الحجاج )  
الروس • آلاف الفلاحين الروس يأتون للقدس كل عام قبل  
عيد الفصح وعلى رأسهم كهنتهم وقد حضر منهم هذا العام -  
آلاف ، وقد وقفوا فى مجموعات ينظرون إلينا • وقد رأينا

الى جانب فلاحى روسيا نفسها بأثوابهم الواسعة واحزمتهم العريضة ، وبناطيلهم الواصلة للركبة ، واحذيتهم التى تغطى حتى سيقانهم ، وقبعاتهم الاسطوانية وأنوفهم الفطساء Snub ولحاهم الشقراء وشعورهم الناعمة المنسدلة المدهونة ، وجد سلافونيا Slavonia الشمالية الذى لا تخطئه العين - رأينا الى جانب هؤلاء الفلاحين رجالا بملابسهم العسكرية الخفيفة التى تحليها الأنواط والأوسمة \* .

لقد ركبنا خلال هذا الزحام اللافت للنظر حتى وصلنا الى بوابة يافا Jaffa Gate (\*) ، فترجلنا عن دوابنا ومررنا عبر بوابة قديمة رمادية الى داخل المدينة المقدسة \* .

وهنا وقف البطريرك الكاثوليكي Latin محاطا بعدد كبير على غير المعتاد من الاكليروس وخريجي الجامعات alumni والرهبان - وكلهم يلبسون الأرواب ويحملون الشموع \* . وكان البطريرك وتابعوه يلبسون لحى ككل القسس فى الشرق ( يضعون لحى مستعارة ) \* .

وركعنا وقبلنا الارض وبعد صلاة قصيرة القى البطريرك - وهو جنوى بالميلاد - خطبة بالايطالية ، رددت عليها بكلمة القيتها بالفرنسية \* . ومن ثم شرع القسس والرهبان فى الترتيل وتقدموا - مشى مشى - الموكب الذى تحرك ببطء ، وسرت انا عن يسار البطريرك ، بينما سار الدوق الكبير عن يمينه ، وتبعنا الآخرون جميعا حتى الأتراك ذوو المقام الرقيق ، والى جوار الموكب سارت ثلة من العساكر المشاة الأتراك مهمتها فى مثل هذه المناسبات أن تضمن لكل أصحاب دين أو مذهب أن يجرؤوا احتفالهم ( ويؤدوا طقوسهم ) دون ازعاج من أصحاب الديانات أو المذاهب الأخرى \* .

---

(\*) المقصود بـ بوابة القدس المسماة بوابة يافا كما لا يخفى على فطنة القارىء -  
( المترجم )

وشوارع المدينة مظلمة جدا وضيقة ، وهوؤها كهواء  
الأقبية يعطي شعورا بالاحباط ، فبين اسوار المدينة هواء  
مسمم بكل انواع الروائح المرعبة - ليس ما هو أكثر مدعاة  
للمفتيان منها \* وقد رصفت الشوارع ببلاطات غير منتظمة  
تسبب تعثر العابرين ، وتحفظ القدس بطابعها العبرى  
القديم الكئيب Gloomy الذى لم يتغير ، وليس فيها  
- بشكل عام - شئ من تألق المدن الاسلامية وأسواقها \*

الشوارع مكتظة اكتظاظا شديدا ، والطرق المؤدية الى  
البوابات ملأى ببشر من كل حذب وصبوب : مقدسون (حجاج)  
أوربيون ، ويهود ومسيحيون ، ومسلمون شرقيون \*

وسار الموكب فى عدد من الشوارع الصغيرة Small ،  
وأخيرا وصلنا الى متبسط يؤدى الى مجموعة سالام متواصلة  
a flight of steps فهبطناها لنكون فى مجاز ( ردهة ) كنيسة  
القيامة church of sepulchre \* كان الفناء the court مرصوفا  
ومسورا من جانبيين بسورين عاليين ، وفى الجانب الثالث  
توجد الواجهة الرئيسية facade وبها اعمدة رشيقة جدا  
وبسواية جميلة ذات عقد فخم \* وكل ذلك يعود لزمان  
الصليبيين \*

ان النظرة الأولى لأهم المقدسات المسيحية تترك فى كل  
حاج انطبعا مهيبا جليلا يزيد من عمقه الموضع ، فالفناء  
( الساحة ) القديم يقع أدنى ( أكثر انخفاضا ) من مستوى  
سائر المدينة بعدة خطوات وتحيط بها المنازل الداكنة للقدس  
الحزينة وفى وسط الفناء تقع كنيسة القيامة بقيادتها العالية ،  
وقد أثر الزمن فى المبنى تأثيرا واضحا \*

ويتناثر فى هذا الفناء باعة الصور المقدسة ، ووقف  
كثير من القسس والرهبان الروس يراقبون موكبنا ودخلنا



من البوابة الرئيسية \* ان الكنيسة من الداخل مثيرة للاعجاب،  
لكنها تعطى انطباعا بالحزن والقسوة \*

وتعيق البخور وعطر الورد جو الكنيسة الرطب المقبض  
الثقيل \*

وثمة بوابات مصليات صغيرة ( جمع مصلى Chapel )  
الى اليمين والى الشمال ، ودرجات ( سلالم ) واماكن مرتفعة  
مخصصة للمنشدين والمرتلين والكهنة Choirs ، وسرعان  
ما يرى الحاج ( المقدس ) أن بيت الله العظيم هذا ما هو  
الا ملتقى لمذاهب شتى وطرائق عبادة مختلفة ، وكحل وسط  
لهذا الاختلاف تم تخصيص مكان لكل مذهب أو جماعة لتؤدى  
فيه طقوسها بعيدا عن أصحاب المذاهب الأخرى \* وفى وسط  
الكنيسة بين صالة دائرية يوجد مصلى chapel واحد ، بمثابة  
معبد temple قائم بذاته ، انه المصلى الحقيقى للمقبرة  
( المدفن ) Sepulchre وهو تابع ( أى المصلى ) للكنائس  
الشرقية والكاثوليكية Eastern and Latin وترتبط عقائد كل  
المذاهب القديمة بها \* أما المذاهب المسيحية الأحدث  
— البروتستنتية والعقائد الشبيهة — فهي وحدها المستبعدة  
( لا يسمح لها بممارسة الشعائر هنا ) \*

وقبل أن نصل الى مصلى الدفن Chapel of the Sepulchre  
ركعنا جميعا بالقرب من الحجر المكعب العظيم الذى تم تعطير  
المسيح عليه ( قبل دفنه ) Stone of anointing وكان محوطا  
بشمعدانات ثقيلة — وانظر حنا أرضا وقبلناه ( أى قبلنا  
الحجر ) \* انه الحجر الذى عطر فوقه نيقوديموس Nicodemus  
جسد المسيح قبل الدفن ، ففى الكتاب المقدس ( \* ) : « ولما  
كان المساء اذ كان الاستعداد ، أى ما قبل السبت جاء يوسف

( \* ) فضلنا نقل ما يقابل النص الذى أورده الارشيدوق ودولف من الاناجيل العربية  
مباشرة \* ( الترجمة )

الذى من الرامة Arimathaea مشير شريف a disciple of Jesus وكان هو ايضا منتظرا ملجوت الله فتجاسر ودخل الى بيلاطس Pilate وطلب جسد يسوع ، فتعجب بيلاطس انه مات كذا سريعا فدعا قائد المائة وساله : هل له زمان قد مات ؟ ولما عرف من قائد المائة وهب الجسد ليوسف فاشترى كتانا فأنزله وكفنه بالكتان ووضع في قبر كان منحوتا في صخرة ودحرج حجرا على باب القبر» .

مرقس ١٥ : ٤٢ - ٤٦

« ثم ان يوسف الذى من الرامة وهو تلميذ يسوع ولكن خفية - لسبب الخوف من اليهود - سأل بيلاطس ان ياخذ جسد يسوع ، فاذن بيلاطس فجاء وأخذ جسد يسوع ، وجاء أيضا نيقوديموس الذى أتى أولا الى يسوع ليلا وهو حامل مزيج مر وعود نحو مئة منا ، فأخذ جسد يسوع ولفاه باكفان من الاطياب كما لليهود عادة ان يكفنوا ، وكان فى الموضع الذى صلب فيه بستان ، وفى البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط فهناك وضعنا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريبا » .

يوحنا ١٩ : ٣٨ - ٤٢

« وفى المساء جاء رجل غنى من الرامة يدعى يوسف وكان هو أيضا قد تتلمذ ليسوع ، وتقدم الى بيلاطس وطلب منه جسد يسوع فامر بيلاطس بتسليمه الجسد . فأخذ يوسف الجسد ولفه فى كتان نقى وأسجاه فى قبره الجديد الذى كان قد نحته فى الصخرة ثم دحرج حجرا كبيرا على باب القبر ومضى ، وكانت هناك مريم المجدلية ومريم الأخرى جالستين تجاه القبر » .

- انجيل متى - الترجمة الجديدة ( لجنة ترجمة الكتاب المقدس - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٢ )  
الفصل السابع والعشرين - ص ١٢٤ .

وانتهت طقوسنا فتقدمنا الى مدخل مصلى الدفن  
the Chapel of the Sepulchre ، لقد ظل هذا الموضع الصغير لفترة  
طويلة قصرا على الكنائس الشرقية ، والأثر اليونانى واضح  
فيه بجلاء سواء فى داخله أم فى خارجه ، وهو محلى بالذهب  
والفضة وبه صور سوداء للمقديسين ، وله كل السمات الخاصة  
التي تميز الكنيسة الشرقية الأورثوذكسية .

وسمح بالدخول الى المصلى Chapel بصحبة البطريرك  
فدخلنا عبر بوابة منخفضة بحيث يتعين على الداخل أن  
يزحف - بكل معنى الكلمة حتى يصل الى ضريح العقيدة  
المسيحية وتظهر الصخرة الجرداء بين زينات خصبة فوقنا  
هذه الصخرة العارية ، لأنها الصخرة نفسها التي دفن فيها  
المسيح ( عليه السلام ) the Son, of God was laid .

وطغى على المكان اريج الزهور والبخور والايهة اليونانية  
وضوء المصابيح الضارب للعمرة وهممة الصلوات الكاثوليكية  
( اللاتينية ) . لقد بدا هذا القبر الضيق وكأنه العالم كله ،  
انه مهد عقيدتنا ( المسيحية ) . ان الحاج يضغط بحماس  
اعتقادي - بشفتيه الحارتين على هذا الحجر العارى ، ويبشه  
عواطفه الحارة ويتحدث ( اليه ) براحة وقوة وأمل .

وبعد دقائق قليلة أخرجنا البطريرك مرة أخرى فركعنا  
جميعا امام مصلى الدفن ، بينما كان القسس والرهبان يرتلون  
التراتيل المقدسة التي تردد صداها بين الصالات المهيبة .  
واستأذنا من البطريرك عند باب مصلى الدفن . وقد رغبتنا  
أن نؤدى صلواتنا الأولى عند هذه البقعة المقدسة واقترحنا  
أن نزور الكنيسة ونتفحص تفاصيلها فى اليوم التالى . لذا  
فسوف اقدم وصفا سريعا لها بعد ذلك ، أما الوصف  
التفصيلي فقد يحتاج الى دراسة مستقلة . اننا الآن نمر خلال  
بعض الشوارع الأكثر ضيقا الى مركز الضيافة hospice  
النمساوى مصحوبين بالمسؤولين الأتراك . ومركز الضيافة

النمساوي هذا عبارة عن مبنى واسع وبه أماكن للإقامة ذات  
غرف وملحق به مصلى chapel جميل جدا . ووصلنا  
لبوابة المبنى بعد صعود درجات سلم ، واستقبلني مسئول  
المقر وهو قس من التيرول Tyrolese جدير بالاحترام .

وبعد وصولنا مباشرة ، كان علينا أن نستقبل القنصل ثم  
المستولين الأتراك، وحاكم المدينة ، وكانوا جميعا في ثيابهم  
الشرقية ، وبعد ذلك استقبلنا رؤساء كل الكنائس المسيحية،  
ورؤساء الطوائف اليهودية . وأتى البطريرك الكاثوليكي  
Latin ومعه القسس والرهبان ، وأتى البطريرك اليوناني  
ومعه باباواته his popes ، ثم أتى رجال الدين الأرمن  
فالأقباط فالبطريرك السوري . وتعتبر الكنيسة السورية  
هي أكثر الكنائس لفتا للنظر ، ويمثلها في القدس رجل  
وقور ذو لحية داكنة جاء في طيلسان أسود يتدلى من غطاء رأسه  
البابوي حجاب . وعقيدة اليعاقبة القديمة Jacobean  
وهي - على حد علمي - أول العقائد التي انفصلت عن  
الكنيسة الأولى في عصور المسيحية الأولى . ولا زال لها أتباع  
حتى في آسيا الصغرى ، واليعاقبة يوقرون القديس جيمس  
James أكثر من توقير الكنائس الأخرى له .

وأخيرا زارنا الحاخامات اليهود rabbis وكان على  
رأسهم كبيرهم يرتدى زى طبخته الكهنوتية السائد بين يهود  
هذه الأيام . هذا الرجل العجوز بلحيته الطويلة البيضاء  
وبشرته الشمعية الصفراء وملابحه الرقيقة كان قد ولد في  
أسبانيا وارتدى - كمعظم الحاخامات المقيمين في فلسطين -  
اللباس اليهودي ( العبري ) القديم : نعل أصفر ، وثوب  
طويل وعمامة وعباءة يزينها الفراء . وكنت أتخيل دائما  
أن الفريسيين (1) Pharisees لابد أن منظرهم كان كمنظر  
هؤلاء الحاخامات rabbis .

وبعد أن غادرنا هؤلاء الزوار الذين كان منظرهم شائقا طريفا غادرنا مقر الضيافة النمساوى (الأنف ذكره) متخترقين شارعاً يؤدي الى بوابة دمشق القديمة . ونصبت خيامنا خارج البوابة مباشرة بين بساطين نخيل فريته ( لم تتم نموها الطبيعي ) بالقرب من مواضع حجرية واكوام من بقايا مبان خربة . وتركنا خيولنا ودوابنا بالقرب منا . ونام رجالنا على الأرض ، ونام الخيالة الأتراك الذين رافقونا - للمعراسة - من يافا بالقرب منا فى معسكر مؤقت بالعراء ، واقام جنود مشاة القدس كردونا ( سياجا ) حول المعسكر كله حتى لا يزعجنا العامة - خاصة من المسيحيين واليهود - بأكوام من طلباتهم والتماساتهم .

لقد سعدنا بالراحة بعد أن عانينا هذا اليوم من الحرارة والارهاق ، وأعاد الهواء المنعش ومنظر الشمس الغارية اليثا الراحة وبعد أن تناولنا العشاء عم السكون المعسكر ، وظل نباح الكلاب نصف المتوحشة يصل الى أسماعنا عبر أسوار المدينة ، بالاضافة الى أصوات الضباع التى جذبتها بقايا الذبائح التى ذبحت فى موضع لا يفصله عن معسكرنا الا واد ضيق صغير .

وفى الصباح الباكر لليوم الثلاثين من الشهر ذهبنا جميعا سادة وخداما الى مقر الضيافة النمساوى الأنف ذكره حيث تلقى القس الملحق بالمقر ، وبعض الفرنسيين الذين يتحدثون الألمانية الاعتراف من كل مجموعتنا ، ثم انطلقنا الى كنيسة القيامة حيث أقام القس أنف الذكر القداس ووزع العشاء الربانى Communion علينا جميعا . وبعد القداس بدأ القس يبارك الأشياء العديدة التى اشتريناها كتذكارات والتى وضعناها على حجر المدفن .

ولما غادرنا مصلى المدفن ذهبنا لنرى الكنيسة الكبيرة نفسها ، وعبرنا مصلى آخر صغيرا خاصا بالفرنسيين الى

دير فرنسيسكاني صغير متصل أيضا بمبنى كنيسة القيامة ،  
ووصلنا - بعد أن مررنا بسلاسل ضيقة وغرف قدرة ذات  
هواء خائف بشكل لا يطاق - الى صومعة متواضعة تسمى  
حجرة الطعام فاستضافنا الرهبان الودودون وقدموا لنا  
شيكولاتة طيبة .

وإثناء تناول الافطار وصف لنا راعي ترانستا Terra  
العداوة والصراع التي تكاد تكون متصلة والتي  
تسود بين مختلف المذاهب ( المسيحية ) ، والتي تتجاوز - في  
بعض الأحيان الكلمات الى الأفعال ، وإذا حدث هذا داخل  
الكنيسة ، فإن المساكين الأتراك غير المسيحيين يتدخلون  
بفعالية لضبط النظام . لقد تحدث القس ثابت الجنان  
بشجاعة وألقى اللوم كله - بعبارات قوية - على المسيحيين  
الشرقيين . ومن الصعب أن نقرر على أية طائفة مسيحية  
يقع اللوم الأكبر ، لكن المؤكد أن هذا الاختلاف المستمر  
لا يجعل الأتراك يقبلون على اعتناق المسيحية ، وبعد الافطار  
استعرضنا الدير كله . لقد كان الرهبان يعيشون في صوامع  
بائسة وليس أمامهم - لشم الهواء النقي - الا شرفة فوق  
السطح ، وهذا الدير الفرنسيسكاني الصغير ومقار الإقامة  
المخصصة للقسس اليونانيين والأرمن - في الجانب المقابل  
للدير في الكنيسة - أي أنها جميعا تقع داخل حدود كنيسة  
القيامة التي ليست لها الا بوابة واحدة لا يفتحها الا الأتراك  
الذين يحكمون سيطرتهم عليها في المناسبات المهمة وعند  
وصول عدد كبير من القديسين ( الحجاج ) وذلك اذا طلب كل  
البطاركة أو أحدهم ذلك . وفي الفترات الفاصلة ( بين  
المواسم والمناسبات الدينية ) تظل الكنيسة مغلقة غالبا  
لأسابيع بل ولشهور ، وفي هذه الأثناء تفرض حراسة  
مشتركة من الداخل وتتم مراقبتها بعيون حذرة . وليست  
ثمة بوابة أخرى للكنيسة تفضي للمدينة سواء عن طريق  
الدير الكاثوليكي Latin البائس أو من المناطق المخصصة

للمسيحيين اليونانيين ، فكلتا الطائفتين ( الكاثوليك واليونانيين ) مضطرون للتزود باللحوم والشراب عن طريق سلال ينزلونها ( بحبال ) من خلال النوافذ وبالقرب من مسار هؤلاء الحراس الكنسيين ممرات تدور داخل الكنيسة ، ومنها يمكن لرجال الدين المنوط بهم حراسة الكنيسة معرفة كل ما يجرى بالداخل .

لقد هيطنا من الدير الموجود داخل الكنيسة وتفحصنا كل المواضيع التاريخية وكل المصليات Chapels الجانبية وحل المواضيع المرتبطة بالقصص الديني والجوانب العقائدية . ان المرء يجمع كما كبيرا من الأفكار والمعلومات التراثية هنا . انه من السهل ان يرى المرء أن هذه المباني المختلفة تعود لعقب بعيدة مختلفة وأن كثيرا منها له خصائص عمارة العصور الوسطى . والمصليات الفردية والأضرحة - ويوجد منها عدد كبير - تختلف في طابعها وفقا لأصحابها ( ملاكها ) ، فبعضها كاثوليكي ( لاتيني ) تماما ، وبعضها الآخر أرمني أو سوري أو قبطي ، وإن كان أغلبها أرثوذكسي يوناني وهذا النوع الأخير مزين بالذهب والفضة ويفص بصور القديسين البيزنطية الداكنة .

وعند الحديث عن كنيسة القيامة اكتفيت بتسجيل الانطباعات والمناظر التي حفرت في ذاكرتي بحيوية ولم أحاول الخوض في الوصف التفصيلي لها ، لأن ذلك يحتاج لدراسة تمهيدية تستغرق جهدا يحتاج لوقت طويل ، كما أنه يمكن الامام بوصف مفصل ودقيق لها - لمن أراد - من خلال بعض الكتيبات الإرشادية .

ولم أترك أية بقعة في الكنيسة الأزرقتها فترحت أضعد سلالم وأهبط سلالم أخرى ، وغالبا ما كان مسيرى على بلاطات ( ألواح حجزية ) غير جيدة الرصف وغير منتظمة بأية

حال من الأحوال • وفى كل مكان • خاصة عند الأضرحة اليونانية رأينا عددا من المقدسين (الحجاج) الروس يصلبون أنفسهم دوما بين كل سجود وآخر •

ثم تفقدت دير القديس سالفاتور Salvator الفرنسيسكانى الكبير القريب ولم يكن فيه كثير مما يستحق الرؤية فقد كان ديرا فقيرا جدا ليس به الا كنيسة ومطعم وبعض الصوامع لذا ، فقد كانت زيارتنا الحقيقية لرهبانه • وكانت زيارتنا التالية للبطريرك وقد استقبلنا فى بيته المحوط بعدد كبير من رجال الدين التابعين له • ومسكنه كمساكن رجال الدين فى الجنوب أجرد قليل الأثاث وثمة بعض الستائر المزقة هنا وهناك ، والأرضية من ألواح حجرية ، والجدران مزينة بصور دينية من الفن الايطالى • والمصلى والساحة والسلم الفريض ، كل ذلك بسيط غاية فى البساطة ويبين كيف أن أمراء الكنيسة الكاثوليكية Latin فى الشرق أبعد ما يكونون عن الثرام •

وفى بيت البطريرك الجليل كان علينا أيضا أن نلتزم بالعادة الشرقية المرعبة وهى أن نتناول مشروبا عند كل زيارة • لقد بدأنا بالشيكولاتة عند الفرنسيسكان ، أما هنا ( عند البطريرك ) فكان علينا أن نتجرع شراب الليمون وعصير اللوز وكلاهما كان تفه المذاق ( غير مستساغ ) ، وكان ما هو أسوأ فى انتظارنا فى الصباح •

واقتربت منى فتاة مسيحية من هذه الأنعام على سلم بيت البطريرك • كانت شرقية خالصة ، ترتدى اللباس اليهودى القديم وتضع فوق رأسها غطاء رأس أبيض ، ولم تكن محجبة • كان منظرها مدهشا وملامحها دقيقة وقوامها رشيقا وسحنتها شاحبة • انه أفضل نموذج لمن يريد أن يتصور المجدالية Magdalen • وقد سلمتني ملتصقا واختفت بين صفوف الأعمدة ( فى الرواق ) •



وسرنا في الشوارع الضيقة المزدحمة بالبشر ، في طريقنا الى البطريرك السورى \* مقدسون ( حجاج ) كثيرون وتجار مسلمون ومتسولون ذوو منظر بشع ، يملأون جوانب الطرقات ، واستقبلنا البطريرك السورى فى ثوب أسود عند مدخل الكنيسة ، وكان قسسه يلبسون جميعا الملابس السوداء التى يلبسونها عند أداء القداس ، ويضعون فوق رؤوسهم أغطية رأس كتلك التى يراها المرم فى صور الفترة المسيحية الباكرة ، ويحملون فى أيديهم مشاعل \* ودخلنا الكنيسة بوقار بين القسوس وصبية الخورس ( المنشدون فى الكنيسة ) وكانوا يلبسون ملابس كملايس القسوس ، وقد أنشدوا - بالسريانية (\*) - النشيد الوطنى .

والكنيسة نفسها تشبه الكنائس اليونانية ، فهى ثرية فى الزينات الذهبية والفضية وباسراف ، ومع هذا فلها بعض الخصائص التى تميزها عنها (عن الكنائس اليونانية) كما أن بها مقبرة خاصة للمتحمسين للقديس جيمس . S. James

ومذبح هذه الكنيسة مرتفع جدا ، وفى مصلى جانبي بين حجر يستقر رأس القديس جيمس ويوقره أتباع هذه الكنيسة كثيرا الى حد التأليه almost as a divinity . والمعراب بما فيه من آثار مقدسة مزين بزينات ثرية كما هو معتاد \* وبالقرب من المذبح يوجد عرش مذهب مرتفع يمر به القسوس ويشيرون اليه بأعرق درجات التوقير . انه مقعد القديس جيمس ، وعلى هذا المقعد يتم دائما تتويج هذا القديس ، لكن ذلك - بطبيعة الحال - يتم بشكل غير مرئى invisible .

وثمة حجاج ( مقدسون ) كثيرون فى هذه الكنيسة التى تمتد مثل هذا الاعتقاد ، ويتضح من نظراتهم أنهم ترك أو مسلمون \* .

---

(\*) النص in Syriac ربما أوردناه فى المان هو المقصود هنا - ( المترجم ) .

وتحركنا في موكب وقور من الكنيسة عبر رواق الى منزل البطريرك وكان بسيطا كما انه - غالبا - غير ماهول، وبه كنبة في احد الأركان ، وثلاثة مقاعد تدعو للانقباض في الأركان الثلاثة الأخرى : واستقبلنا الرجل الوقور العجوز بحرارة واضطررنا لابتلاع شراب أحمر بلون الورد، لا يمكن وصفه .

#### الحى اليهودى :

وبعد زيارة قصيرة غادرناه الى الحى اليهودى . تمت بعض الأسواق في القدس يسيطر عليها اليهود ، ويتمثل مصر إقامة الشعب المختار ( الجنس المختار ) في تجمعات في حوار طويلة مليئة بالمحلات التجارية . قذارة ، ووسخ وروائح نتنه وضوضاء - لا يستطيع المرء الا يشق النفس معرفة مصدرها . أطفال نصف عراة يتمشرون على أحجار الشوارع ، والنسوة اليهوديات ترتدى الواحدة منهن وشاحا ( غطاء رأس ) غير مهندم وتلفه حول رأسها المجزوز Shorn head وقد اطلن من النوافذ ، والرجال اليهود يبيعون ويشتررون ويسامون ويفشون cheated . وثمة يهود من كل أصقاع العالم هنا لكن قليلين منهم يلبسون الملابس المعتادة ، وكثير من اليهود البولنديين يلبسون التالار Iatar (؟) وأحذية برقبة وطواقى من فرو ، وان كانوا جميعا في زى شرقى يشبه زى اليهود القدماء . ويمكن للمرء أن يسمع كل اللغات هنا ، وان كانت الألمانية والعبرية هما السائدتان .

ومررنا بمشقة بين هذا الزحام لنصل للكنيس ( المعبد اليهودى ) فاستقبلنا الحاخام وكبار رجال الدين ( اليهودى ) وهم يلبسون ملابس ألمانية وقدموا مقاعد لنجلس في المعبد . كان الكنيس جديد البناء ويبدو كالمعابد اليهودية في بلادنا ، وكان عدد قليل من اليهود الحاضرين يرتدون ملابس جميلة فمعظمهم كان يلبس القفاطين ويبدون بولنديين ، وبينما كنا

جلوسا أنشدوا أنشودة دينية(\*) ورثلوا الدعوات (الصلوات)  
بطريقتهم الطريفة المقرونة بالحركات العصبية وعيسونهم  
المتحولة ، وسرعان ما غادرنا متبوعين ببركات الكنييس  
المفرطة !

ولما كانت كنيسة القيامة مفتوحة فقد كان الزحام شديدا  
في الشوارع ، فالناس يتحركون تحركا لا يكف جيئة وذهابا ،  
مشكلين خليطا مدهشا من الأجناس : روس وبلغار وفاليشيين  
Wallachians وأرمن ومواطنو آسيا الصغرى ويونانيون  
واقباط والمقدسون ( الحجاج ) الكاثوليك Latin .

وبعد أن تناولنا افطارنا في معسكرنا ركبنا الخيول  
متتبعين الأسوار الداكنة القديمة للكنيسة الله Sacred Zion  
الى مسجد عمر الرائع . والحرم الشريف عبارة عن مساحة  
واسعة محوطة بالأسوار . والمسجد الرئيسى قبة الصخرة يقع  
فى وسط هذه المساحة يقبته الشامخة وأروقته وأعمدته  
وصالته ( صحنه ) المثلثة - انه أحد أكثر المباني الاسلامية  
شهرة . ويوجد بين مبنى المسجد الرئيسى والمباني المتاخمة  
لجدرانها ( الملاصقة لها ) بقايا أثرية صغيرة مختلفة آيلة  
للسقوط وآبار . والمعلم الأساسى بينها هو المسجد الأقصى  
المتسم بكثير من الجمال ، وكان كنيسة تم بناؤها فى عهد  
الامبراطور جستنيان تغليدا لذكرى مريم ( العذراء ) وبعد  
ذلك جعله عمر بن الخطاب ( رضى الله عنه ) مسجدا .

وقد تفقدنا هذا المسجد بارشاد كبير الدراويش the chief  
dervish ، الذى يلبس لباسا ناصعا لكنه يبدو مسلما عجوزا  
غير قدير . والناس فى فلسطين - كما هو الحال فى كل البلاد  
الاسلامية فى آسيا أكثر تعصبا بكثير مما عليه الناس فى

---

(\*) كلمة العبارة on their circular estrade ولم نفهم المعنى المقصود ..  
( التبرج ) .

مصر ، لذا لا يد أن يكون المسافرون حذرين مخافة جرح مشاعرهم . لقد تفحصنا المسجدين بعناية ، وفي وسط المساحة المثلثة أنفة الذكر توجد كتلة صخرية ضخمة اقيم المسجد the temple حولها ، وهذه الصخرة تعتبر خير شاهد على التشابه الكبير بين التراث الدينى الشرقى ، فحتى اليهود يوقرونها . وقد ذكرها التلمود والتراث اليهودى يفيد أن ابراهيم ( الخليل ) وملكىصادق Melchisedek ( ٢ ) قد ضحوا هنا ، وهنا كان ابراهيم ( الخليل ) على وشك أن يذبح ابنه اسحق Isaac ( \* ) وأن يعقوب ( عليه السلام ) كان أيضا يجله . وموقع تابوت العهد هنا ، ويعتقد اليهود انه مازال موجودا فى المكان نفسه الذى خبأه فيه Jeremiah .

ويعتقد أن هذه الصخرة هى مركز العالم ، وان كان هناك اعتقاد آخر هو أن كنيسة القيامة هى مركز العالم وقد حدد المركز بوضع حجر صغير عليه داخل الكنيسة .

وانها لحقيقة طريفة أن المسجد الكبير يقع فوق معبد سليمان ، وأن المسلمين يؤمنون بكل التراث اليهودى وأضافوا اليه تراثا آخر خاصا بهم . فالمسلمون يقولون ان هذا الحجر يسبح فى الهواء دون ( دعاءات تحته ) فوق هاوية ، وليبينوا لك ذلك فانهم يصحبونك الى مساحة مجوفة تحت المعبد ( المسجد ) حيث ترى بقايا الجدران القديمة التى تعود للعصر اليهودى . ويريك المسلمون أيضا مواضع صلاة داود ( عليه السلام ) وسليمان ( عليه السلام ) وابراهيم ( عليه السلام ) والياس ( عليه السلام ) ، وهنا أيضا ترك محمد ﷺ أثر رأسه ( أثناء الصلاة ) .

واذا أردنا احصاء كل الأساطير myths المرتبطة بهذه البقعة المهمة كل الأهمية ، فى العقائد الآسيوية ، فان ذلك

---

( \* ) كان الخليل ابراهيم عليه السلام على وشك ذبح ابنه اسماعيل ، عليه السلام . وكان ذلك فى مكة المكرمة كما هو معروف لدى المسلمين - ( المترجم ) .

سيكون عملا شاقا مرهقا ، ولكن لسكى نيين كيف ان ظل  
 ارمناثد التي نشأت في الشرق ترتبط معا hang together  
 يمكننا أن نذكر أن هذه الصخرة - وفقا لما يقوله المسلمون -  
 هي البقعة التي سينصب فيها - يوم القيامة - عرش الرحمن ،  
 وستأتى الكعبة ( المشرفة ) من مكة الى الصخرة ( في القدس ) ،  
 فهنا سينفخ في البوق ( الصور ) ويبدأ الحساب \* وفي أيام  
 الاسلام الباكورة كانت هذه البقعة بأهمية مكة نفسها  
 ومن هذا الحجر صعد ( عرج ) محمد ﷺ للسماء ، وكان على  
 جبريل أن يعيد الحجر لمكانه لأنه ( أى الحجر ) كان ميلا  
 للتحليق مع محمد ﷺ وقد أطلعونا هنا على شعر ذقن النبي  
 ﷺ ورايته ، وكذلك شعر عمر ( رضى الله عنه ) ورايته ،  
 ودرع حمزه ( رضى الله عنه ) عم عمر ( رضى الله عنه )  
 ( كذا ) ، كما أرونا بعض نسخ جميلة من القرآن ( الكريم )  
 وقد لاحظنا أيضا الفسيفساء mosaics ذات الأهمية الكبيرة  
 فى تاريخ الفن ، وبعض النوافذ الزجاجية الجميلة ، وبعض  
 النفاثس المعمارية مما لا مجال لذكره هنا .

وعلى أية حال ، فلا بد من ذكر الكتابات الكوفية القديمة ،  
 وآيات القرآن ( الكريم ) المنقوشة على الجدران بخط جميل \*  
 والتي تشير للمسيح ( عليه السلام ) من وجهة نظر القرآن  
 ( الكريم ) :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له  
 عوجا (١) قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين  
 الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا (٢) ماكثين فيه  
 أبدا (٣) وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤) ما لهم به من

(١) سورة الكهف/مكية ، وقد نقل الإريشيدوق رقم السورة خطأ xvii والصحيح xviii

كما ترجمت له الآيات مبتسرة هكذا :  
 Praise be to God who has had no Son and none to share his govern-  
 ment, and no helper to save him from dishonour, praise him", etc.  
 ( المترجم )

علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون  
الا كذبا (٥) « (١) »

واتينا لمكان مخشوف وذهينا للجدار الخارجى - انه  
يهبط - بشكل عمودى - الى مسيل صخرى عميق ، وهنا  
يمكن رؤية منظر رائع عبر ارض مسطحة الى جبال الاردن  
والبحر الميت - ولفتت نظرنا البوابة الذهبية فى الجدار ،  
وقد اخبرتنا الحكايات اليهودية المتعلقة بحياة المسيح عنها  
وقد ملأها المسلمون حتى آخرها بالأحجار لأن هذه البوابة -  
وفقا لاعتقادهم - ستكون المدخل الذى سيدخل منه ملك وسيم  
قادم من الغرب ليقتحم مسجد عمر ويضع نهاية لحكمهم -  
وغادرنا هذه البقعة الشائقة جدا بعد زيارة طويلة ،  
انها الموضع الذى يقع فيه المعبد اليهودى القديم وقصر  
سليمان ومركز اشعاع المملكة اليهودية المتقدمة حضاريا -  
وهنا أيضا - فى وقت لاحق - علم المسيح ( عليه السلام ) ،  
وكثير من أفعاله وأقواله المرتبطة بعقيدتنا مرتبطة بدورها  
بهذا المكان ، وبعد ذلك دخل الرومان المنتصرون هنا وذبحوا  
اليهود - وهنا يقع معبد جوبيتر Jupiter وأصبح فى عهد  
جستنيان البيزنطى كنيسة ، وأخيرا أتى الاسلام وجعل منه  
مسجدا فسيحا ، وهكذا اختلطت عقائد الديانات الثلاث  
وتراثها فى أيامنا هذه بهذه البقعة اختلاطا غريبا ، لتذكرنا  
بأنها جميعا ديانات شرقية -

ومسجد عمر جعلنا أيضا نتذكر لوحة رافائيل Raphael  
الشهيرة عن زواج العذراء -

وممرنا محاذين لحائط المبكى اليهودى ، حيث لا يزالون  
يذهبون لينعوا مملكتهم المفقودة وخرائب معبدهم ، وعبرنا  
المدينة الى كنيسة القيامة سالكين الشارع المعروف بطريق  
الآلام Via Dolorosa ، وكان قد تجمع هنا عدد كبير من  
الحجاج الكاثوليك وسلمونا جميعا شموعا مضيئة وتحركنا  
فى موكب على رأسه الفرنسيسكان من بقعة مقدسة الى أخرى

مقدسة ، وكنا نرتل الاناشيد ونغن سائرون ، وعند المواضع المحددة نركع ونكرر الدعوات ( الصلوات ) ، واستمرت هذه الدورة ( الجولة ) ساعة ، لقد أضاعت المشاعل الكنيسة المعتمدة بضوء باهت وعم صوت التراتيل الرتيب ، وانتشرت روائح البخور القوية ، والقي كل ذلك على ارواحنا شعورا باطنيا غامضا • جحافل من المقدسين ( الحجاج ) ينضمون يوميا الى مثل هذا الموكب المرتبط بمنح الغفران الكاثوليكي على نطاق واسع •

وعدنا لمعسكرنا لتتركب خيولنا وندور حول المدينة ( القدس ) • وفي مساء مقمر رائع مررنا بمقابر الملوك وقبر Absalom وراينا حقل الدم Aeldema ووادي قدرون Kedron وكان مهجورا حجريا عابسا بعظمة — رأينا كل ذلك في المواقع نفسها التي حددها الكتاب المقدس •

ودنا الفجر وتشبعت ارواحنا بمشاعر عظيمة ، فعدنا ببطم بين الجدران القديمة الى معسكرنا •

وفي ٢١ مارس ذهبنا جميعا الى كنيسة القيامة لنستمع الى القداس في مصلى جانبي واستقبلنا راعي تراساتنا Terra Santa عند المدخل ، وقادنا لنصعد الى مصلى مظلم حيث كان هناك مذبحان يفصلهما شبك حديدي أحدهما مسطح وبسيط وهو المذبح اللاتيني ( الكاثوليكي ) والآخر مزين بالفضة اللامعة وهو المذبح اليوناني ، والمذبح الأول ( الكاثوليكي ) يقع حيث جلست العذراء مريم عند الصلب ، أما المذبح الثاني فيحمل اسم جولجوثا Golgotha ، وبدأت الصخرة العارية بين المذبح اليوناني ، وأثناء القداس اللاتيني ( الكاثوليكي ) أقبل مقدسون ( حجاج ) كثيرون خاصة من الفلاحين الروس ليقبل الواحد منهم في اثر الآخر — هذه البقعة المقدسة ، فحدونا حدوهم وكان قسوسهم يرشوننا

ياسراق بماء الورد المقدس - أثناء ذلك ، وكان المصلى  
الأورتودوكسى مجللاً بالسواد لأنهم بعد ساعة سيققيمون القداس  
على روح القيصر أسكندر الثانى .

وغادرنا الكنيسة بعد ذلك وذهبنا بعد أن مررنا بشوارع  
عدة الى دير الراهبات الذى أسسه القس المشهور الاب  
رانيسبون Ratinsbonne وتقع كنيسة على the place  
Elce Homo وليس فيها ما يلفت الانتباه فمبناها جديد  
على النسق الفرنسى مطلية باللون الأبيض المتالق ومبناها  
ليس جليلاً ولا مؤثراً ، اذ يبدو كما مكن العبادة البروتستنتية ،  
وقد ألحقت مدرسة للبنات بالدير ، وهى مؤسسة تعليمية  
نبيلة حقاً لذا ، فان هذا القس الجليل يستحق الاشادة ، والمدرسة  
نظيفة جداً وجيدة الترتيب ، وتقدم خدماتها التعليمية  
للأطفال الأغنياء والفقراء على سواء ، ومعظمهم من المسيحيين ،  
لكن القس المتسامح يسمح للبنات اليهوديات والمسلمات أن  
يقتسمن مع زميلاتهن المسيحيات نعمة التعليم .

والقينا نظرة على منظر جبل الزيتون الرائع وعلى  
المنطقة المحيطة بالقدس من فوق سطح المنزل - وفى غرفة  
الاستقبال كان علينا أن نشرب عصير الليمون المعتاد ، ثم  
ذهبنا الى مصلى مجاور هو مصلى ( كنيسة صغيرة ) الآلام  
Scourging (؟) ، وبعد طرقات عدة على باب متها لك  
فتح لنا راعى هذا المكان المقدس - لقد كان فرنسيسكانيا  
عجوزاً غير مهندس ولد فى اسبانيا ، وقادنا الى ساحة خربة  
داخل المصلى Chapel الصغير الذى بنى سنة ١٨٣٩ وفى  
المذبح يوجد الثقب الذى ثبت فيه عمود الجلد .

وبعد ذلك ذهبنا للمباني الحكومية لتقديم واجبات  
الاحترام للباشا والوالى governor ، وفى ساحة مبنى  
شرقى قديم اصطف حرس الشرف مستقبلاً ايانا بمزف



الموسيقا ودخلنا غرفة الاستقبال فى الطابق الأول . كانت الارض مفروشة بالحصى والجدران عارية ، اما الكنب فكان مغطى بأقمشة فاخرة وممتد على طول الجدران الأربعة ، ولم يكن من أثاث آخر فى الغرفة الا هذا الكنب ، وأحسنا بالسرور لأننا سنجلس جلسة شرقية واستمتعنا بالقهوة التركية الممتازة ودخنا السجائر والتوباكو المجلوب من لبنان ، وبعد انتهاء الزيارة القصيرة استأذنا الباشا وغادرنا المبنى الحكومية ، مودعين بعزف موسيقا الأبواق كما دخلنا .

### العلية وزيارة لسلالة عثمان رضى الله عنه :

وكانت زيارتنا التالية لموقع العلية Coenaculum أو موضع العشاء الأخير الذى يقع فى منزل - على حافة المدينة - قديم جدا ، لكنه الآن ذو طابع اسلامى تماما ، وأطلعونا فى المنزل نفسه بين الأحجار والنفايات على قبر داود ( عليه السلام ) وهو مكان يحظى باحترام المسلمين ، وهذا المنزل ملك لأسرة تنحدر من سلالة عثمان ( رضى الله عنه ) وكانت فى وقت من الأوقات أسرة ثرية ، وأفراد هذه الأسرة يعيشون فى فقر مدقع ولكنهم يلبسون عمام خضرا كبيرا حجمها وملابس زاهية لكنها بالية شيئا ما .

وفى ذكرى جدهم العظيم ( عثمان رضى الله عنه ) استقبلونا بطريقة تنم عن تنازلهم وتعطفهم باستقبالنا رغم روح الصداقة التى أبدوها ، ولم يجعلوا للزيارة طعم تفقد اثر تاريخى فى هذا الموقع ، وانما عاملونا وكأننا قد أتينا لنقدم البيعة أو واجبات الاحترام لهم ، باعتبار أن أحدا ما لا يجهل قدرهم . وكان علينا أن نجلس عندهم على كنب قدر فى ممر نصف مفتوح وأن نشرب القهوة فى أكواب قدرة وأن ندخن السجائر . وهؤلاء الناس ذوو ملامح نبيلة و متميزون على نحو لا تخطئه العين ، وكانوا يلبسون لحى طويلة وراحوا يقصون - بالعربية - حكايات تثير الشفقة والرتاء لم تكن

نستطيع أن نتجاوب معها الا بابتسامات ودودة • كانت  
الزيارة قصيرة ثم ركبنا خيولنا التي كانت فى انتظارنا  
خارج البوابة التالية •

وعاد الدوق الكبير والآخرى الى المعسكر ، واتخذت أنا  
والكونت كابوجا Caboga الطريق الشاق فى وادى قدرون  
Kedron • وفى هذا الوادى الكئيب العابس عدد هائل  
من القبور ، وحتى فى زمن اليهود كان هذا الوادى يعد غير  
نظيف بما يتناقض مع تل المعبد المجاور له • والتراث السابق  
على المسيحية يفيد أن الحساب ( فى الآخرة ) سيعقد هنا ،  
ويشارك المسلمون اليهود فى هذا المعتقد ويدفنون موتاهم فى  
الجانب الشرقى للحرم بينما يلتزم اليهود بالدفن فى  
المنحدرات الغربية لجبل الزيتون •

وكلاهما ( المسلمون واليهود ) يعتقد أنه عند النفخ فى  
الأبواق ( النفخ فى الصور ) معلنا قيام الساعة ( يوم القيامة )  
سوف تتراجع التلال لتهبىء للأعداد الهائلة من الجثث التى  
ستبعث من موتها - مكانا ، أما المسيحيون فيعتقدون أنه هنا  
الموضع الذى انشقت فيه الصخور وظهر الميت فى اللحظة  
نفسها التى أحنى المخلص ( المسيح ) Redeemer رأسه  
انحناء الموت فأظلمت الشمس وانشق ستار معبد سليمان الى  
شطرين •

وجبل الزيتون صخرى وشديد الانحدار فى جزئه الأدنى  
أما فى جزئه العلوى ، فإن المنحدرات تتصعد بشكل أقل حدة  
وينطويها الحصى والألواح الحجرية المنتشرة بين أشجار الزيتون  
القديمة كثيرة العقد - صورة التل ذى الخضرة الداكنة  
والمتسم بالعبوس • ووصلنا لقمة التل ( الجبل ) سالكين  
ممشى متعرجا ، فوجدنا مصلى ( مسجدا ) صغيرا به نوع من  
الطبل الدائرى Circular drum وعليه قبة متواضعة ،

تشغل البقعة التي صعد منها المسيح الى السماء وبقيت آثار  
قدمى المخلص ( المسيح عليه السلام ) واضحة على لوح رخام .

وهذا المكان ينص المسلمون ويعدونه مكانا مقدسا  
لكنهم يسمحون للمسيحيين باقامة القداس فى أيام معينة .  
وبجوار المصلى مئذنة وتؤدي بنا درجات ( سلم ) ضيق الى  
المبنى ومن ثم - كما هو معتاد - الى الخارج ، الطريق مهشم ،  
واحجاره زلقة وهو غير ملائم للأشخاص المعرضين للاصابة  
بالدوار ( الدوخة ) ، ورأينا من فوق قمة الجبل منظرا رائعا  
للقدس والمتلال التى تفصل الهضبة والمناطق المجاورة للقديس  
وبيت لحم - عن وادى الأردن . انها تلال ذوات خضرة داكنة  
كالاستبس ، وعلى البعد يمكن للمرء أن يتبين الجبال العالية  
الى الشرق من الأردن والبحر الميت ، ومن خلال مدخل الوادى  
يمكن للمرء أن يلمح مياه هذا البحر الداخلى ( البحر الميت )  
كمراة زرقاء داكنة .

ان جبل الزيتون والمباني المقامة عليه معرضة لاهمال  
شنيع ، وحديقة جيترينه Gethsemene عند سفح هذا الجبل  
- وهى وحدها - التى يبدو أنها حظيت باهتمام من قبل  
الفرنسيسكان ، فهى تابعة لهم . ويعيش الراهب فى منزل  
صغير بجانبها ليتولى أمر العناية بها . وجبل الزيتون وحديقة  
جثسمانى توقظ فى النفس أفكارا جلية ، فكل حجر يشهد  
بصدق التراث ، فكان المرء يرى قصة آلام المسيح بين ليلة  
العشاء الأخير وموته فى صور حية ، لقد شعرت كما لو أننى  
كنت أعرف هاتين البقعتين طوال حياتى . لقد كان الواقع  
متفقا تماما مع الصور التى يجللها الخيال .

وركبنا عائدين من وادى قدرون الى معسكرنا ، وعند  
ساحة الذبيح ( المسلخ ) ترجلت وحاولت الاقتراب من أحد  
نُسُور الجيف لكن محاولتي لم تنجح . مئات من النُسُور  
الضخام تحلق عالياً ، والكلاب لا تفتأ تتردد على هذه البقعة  
المليئة بالدماء . لقد كانت الرائحة مرعبة لا تطاق فاضطرت  
للانسحاب بسرعة .

★ ★ ★

## تعليقات المترجم

### على الفصل السابع

(١) الفريسيون طائفة يهودية عرفت بالتزمت الشديد والالتزام الصارخ بالشكليات ، ومع هذا فقد كان غالبهم أول من يخالف الشريعة ويتحايل على التخلص منها ، ونورد فيما يلى نص ما أورده لجة ترجمة انجيل متى ( ١٩٧٢ ) المشكلة من الأنبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا وزكى شنودة ود . مراد كامل ، وباهور لبيب وحلمى مراد ، والجدير بالذكر أن ما أورده اللجنة آفة الذكر لا يختلف إطلاقا مع ما أورده المصادر الإسلامية المختلفة .

• • • وكان اليهود ينقسمون فيما بينهم الى عدة طوائف مختلفة ومتباينة فى مشاربها الدينية والاجتماعية والسياسية . ولقد اشتهر من هذه الطوائف على الخصوص الفريسيون والصدوقيون والهيروودسيون والكتبة والسامريون والعشارون :

والفريسيون هم طائفة متطرفة ميزت نفسها عن عامة الشعب فى الرأى والسلوك ، ولاسيما أنها كانت الفئة المتعلمة من الشعب ، وقد تصدت للمحافظة على الشريعة والتمسك بها وصيانة التقاليد التى تناقلها الخلف عن السلف . ولذلك حصر الفريسيون همهم فى درس الشريعة وتفسيرها ، ولكنهم تماردوا فى التمسك بالشكليات وبحرفية العبارات ، حتى انتفى المعنى الروحى عن الشريعة لديهم ، وانتهى الأمر بهم الى اعتبار الشريعة كأنما هى صنم يعبدونه . وقد كان لذلك أثره الشديد فى عامة اليهود الذين كانوا يحيطون الشريعة بهالة من الاجلال والتقديس . وكان الفريسيون فى نظرهم هم حفظة الشريعة ، فكانوا يحترمونهم ويطيعونهم ، ومن ثم استعبد الفريسيون الشعب فلم يتركوا أى شىء للارادة الحرة ، بل وضعوا كل شىء تحت قيود العبارة الحرفية للشريعة ، حتى أصبح اليهودى يتساءل فى كل خطوة يخطوها عن حكم الشريعة . وباتت الحياة عذابا لا يطاق لايطاق بالنسبة للرجل المتزمت الذى يخشى

فى كل لحظة أن يقع فى خطر التعدى على الشريعة . ومن الأمثلة على عقلية الفريسيين وأسلوب تفكيرهم ، ما كانوا يضعونه للطهارة من درجات كثيرة لا يرتقى الانسان من احداها الى الأخرى الا بعد الدرس الطويل والتمحيص الدقيق . ومن حذقتهم فيما يتعلق بالطهارة أنهم كانوا يضيفون الى أحكام الشريعة فى هذا الصدد عددا لا يحصى من الطقوس ، اذ كانوا يوجبون غسل الأيدي مرارا قبل كل أكل وعند كل عودة من السوق . فان لم يجد اليهودى ماء لهذا الغرض كانوا يوجبون عليه أن يفتش عنه ولو على بعد أربعة أميال . وكانت لديهم بهذا الخصوص جملة أوامر تحتوى على ست وعشرين صلاة ينبغى تلاوتها فى انثناء غسل الأيدي والأواني على المائدة ، وكانوا يعدون اهمالها بمنزلة قتل النفس انتحارا . اذ يؤدى لديهم الى الحرمان من الحياة الأبدية . وقد خصص التلمود أربعة أبواب كاملة منه لاجراءات الغسل والتطهير . ومع كل هذا التدقيق والتشدد فى تطبيق الفريسيين للشريعة والتقاليد ، يقرر التلمود أنهم لم يكونوا كلهم أبرارا ، فلم يكن أغلبهم كذلك الا فى الظاهر ، أما فى باطنهم فكانوا أول مخالفين لتعاليم الشريعة ، ومن ثم كانوا مثالا صارخا للتظاهر والرياء . وقد قسم التلمود الفريسيين الى سبعة أقسام . وذكر أن ستة من هذه السبعة لا تستحق الاعتبار لمخالفتها الغاية المقصودة . أما السابعة فأفرادها وحدهم هم الفريسيون الحقيقيون . وذلك أن الفريسيين مع أنهم كانوا يعتقدون أن الغرض الاسمى من وجودهم هو اقامة « السباجات » التى تصور الشريعة ، فانهم كانوا على استعداد تام لابتداع الحيل كى يتخلصوا من أحكام الشريعة اذا تعارضت مع مصالحهم ومآربهم . وربما كان أبرز مسائل ذلك هو الوسيلة التى احتسبوا بها ليحلوا أنفسهم من القاعدة الشرعية القاضية بالألا تتجاوز أية رحلة فى يوم السبت مسافة ألفى ياردة . واذ كان الفريسيون حريصين على الاشتراك فى الولائم اليومية العامة ، فى حين كانت منازلهم فى بعض الأحيان تبعد أكثر من ألفى ياردة عن أمكنة هذه الولائم ، كانوا يحتالون على ذلك بأن يضعوا فى عشية السبت بعض الأطعمة على بعد ألفى ياردة من منازلهم . وبذلك يخلقون مسكنا مفتعلا يستطيعون أن يسسروا بعده ألفى ياردة أخرى ، ومن ثم يتاح لهم أن يضاعفوا المسافة المفروضة . كما أنهم كى يتخلصوا من عقبة تحريم حمل أى شئ يوم السبت الى خارج البيت كانوا يحتالون بخدعة أخرى ، وهى أن يضعوا قوائم وعوارض أبواب ونوافذ فى مختلف الشوارع ، فتصير المدينة كلها بمثابة بيت كبير يحل فى داخله حمل الأشياء . ومن الأمثلة كذلك على تلاعبهم أن الشريعة كانت تلزم الابن بأن يعول والديه فى حالتى الشيخوخة والعوز ، ولكن الفريسيين كانوا يتيحون للأبناء الهرب من هذا الالتزام بحيلة كذلك ، وهى أن يذهب

الابن - اذا طالبه أبوه - الى الكهنة ويتفق معهم على أن يوقف كل أمواله وممتلكاته على الهيكل ، وعندئذ يعجز الوالدان عن أخذ شيء منه ، ثم اذا توفقا بعد ذلك عن مطالبتيه ذهب واسترد كل ممتلكاته من الكهنة نظير دفع نسبة معينة من المال ، فيستمر الوقف صسوريا فقط وغير نافذ المفعول . وعلى هذا القياس كان الفريسيون يخالفون أوامر الشريعة ومحرماتها في سبيل منافعهم ومآربهم .

أما الصدوقيون فكانوا هم الطائفة الكهنوتية الأرستقراطية التي كانت متحالفة دائما مع السلطة الحاكمة حتى حين كانت هذه السلطة معادية لليهود . وقد اشتق اسمهم من اسم صادوق سليل فتحاس الذي مارس الكهنوت حين انتهى نسل أولاد هارون . وقد اكتفى الصدوقيون بالطاعة الاعتيادية للشريعة المكتوبة فقط ، في حين كان الفريسيون يعتقدون أن تقاليد الآباء وتعليقاتهم على الشريعة هي فوق الشريعة . وقد كان للصدوقيين نفوذ قوى لأنهم يشرفون على الهيكل . وقد أثروا أثرا فاحشا عن طريق العشور والهبات والتبرعات التي كانوا يجنونها من الشعب . والواقع أنهم - على الرغم من وظائفهم الكهنوتية - لم يكونوا يهتمون بالدين وإنما كان كل هدفهم أن تظل الأوضاع مستقرة ليحتفظوا بسلطانهم وثرواتهم . ومن ثم كانوا يتفاوضون عن وجود المستعمر ، بل كانوا يشجعون ذلك ويسعون الى بقائه . ولذلك لم يكن الشعب يحبهم . وقد كان الصدوقيون قوما ماديين دنيويين لا يؤمنون بالآخرة ولا بالأرواح ولا بالملائكة ، ويعيشون في الدنيا عيش التمتع والرفاهية ، ساعين الى جمع المال بكل حيلة ووسيلة من الشعب ، فكانوا يثرون على حساب . وقد وقعت مشاحنات كثيرة بينهم وبين الفريسيين في هذا الشأن . من ذلك ما حدث بشأن توريد الضحايا اللازمة للذبيحة اليومية في الهيكل ، إذ كان الفريسيون يرون أنه يجب شراء هذه الضحايا من مال الهيكل ، على حين كان الصدوقيون يعدون مال الهيكل من حقهم ، ومن ثم كانوا يرون أنه يجب شراء الضحايا باكتسابات مستقلة . كذلك كان الفريسيون يوجبون حرق الذبيحة على المذبح ، أما الصدوقيون فكانوا يأخذون هذه الذبيحة لأنفسهم . وقد ورد في التلمود أن الصدوقيين إذ كانوا يبيعون الحمام في حوائط يملكونها تسمى « الشاتوجوت » عمارة الى مضاعفة المناسبات التي ينبغي فيها تقديم الحمام ذبيحة ، حتى وصل سعر الحمام الواحدة الى بضعة دنائير . ومن ثم أفشى أحسد شيوخ الفريسيين ، وهو سمعان بن شملائيل ، بانقاص المناسبات التي يقدم فيها الحمام ذبيحة ، وبذلك وصل سعر الحمامة الى ربع دينار ، فكانت تلك ضربة

عفيفة لأصحاب حوائيت الحمام ، التي كان يملكها الكهنة ولاسيما أولاد رئيس الكهنة حنان ( بتشديده وفتح النون ) .

وأما الهيرودسيون فهم طائفة من السياسيين الذين كانوا يشايعون هيرودس الكبير ، وكانوا قد ارتبطوا معه بالنسب ووحدة المنافع الزمنية ، ومن ثم ظلوا في رئاسة الكهنوت خمسا وثلاثين سنة وشاركوا أسرة حنان في السؤدد . فكانت رئاسة الكهنوت في هذه الفترة مشاعا بين الصدوقيين والهيرودسيين . وقله درج الهيرودسيون - بسبب ميولهم اليونانية ومنافعهم المادية - على ادخال التجديدات والعادات الوثنية الى المجتمع اليهودي ، معلنين احتقارهم للشريعة الموسوية . بل لقد بلغ بهم الأمر أن حاولوا اقناع اليهود بأن هيرودس هو المسيح المنتظر . ولما كان هدفهم الأول هو توطيد علاقات هيرودس بالامبراطورية الرومانية ، فقد عملوا على قتل كل حماس وطني واخماد كل ثورة يهودية . كما عملوا بكل الوسائل على محو العلامات المميزة لأمة اليهود . فكان هذا مسار النزاع بينهم وبين الفريسيين . اذ عدهم هؤلاء مرتدين عن الدين القويم .

وكان الكتبة هم علماء الشريعة وحافظي تقاليدهم . فكان من وظائفهم حفظ الهيكل والمجامع تحت اشراف الكهنة . كما كان من وظائفهم تعليم الدين ، وشرح التقليد ، والجلوس على كرسي القضاء في المجامع الاقليمية . ومن ثم كانوا معروفين بالناموسيين ، أو الربيين ، أو المعلمين ، لتفهمهم في الشريعة . وقد نشأت طائفة الكتبة في الأصل عن أن ملوك اليهود القدامى كانوا يتخذون كتبة ونساخا من طائفة الكهنة ورجال الدين . أو من الموظفين المثقفين ، فأصبح هؤلاء في الدولة نفوذ عظيم . ثم في أثناء السبي ازدادت اختصاصات الكتبة ، فدخل فيها التعليم والتبشير بالشريعة ، ومن ثم اعتزلوا وظائفهم الحكومية وأصبحوا طائفة دينية لا تعنى الا بالشريعة وحدها . ثم بعد السبي مباشرة تولى الكهنة اختصاص الكتبة الى جانب اختصاصاتهم واستمر ذلك نحو مائتين من السنين ، أي حتى عام ٢٧٠ قبل الميلاد . ثم بعد هذا التاريخ أصبح الكتبة طائفة منفصلة عن طائفة الكهنة ، واختصوا بالتحريير والنسخ ودراسة الشريعة والاجتهاد في شرح أحكامها ووصاياها . وقد كان تعليم الكتبة حرفيا ضيقا ، صارما ، وقورا في مظهره ، خليعا في جوهره . وقد شغفوا بالجدل ، لا لشيء الا الاستمتاع بلذة الجدل .

وكان السامريون هم أمل السامرة التي كانت عاصمة مملكة اسرائيل ، ثم سقطت في يد ملك آشور عام ٧٢٢ قبل الميلاد . فأسر زعماء الشعب وأعيانه وكهنته وأخذهم الى السبي وأحل محهم في السامرة خليطا



من الأجناس الأخرى ، وجعل على هذا الخليط حاكما آشوريا . ومن ثم لم يعد لمن بقي من اليهود في السامرة من يبصرهم بأحكام الشريعة الموسوية ، فكادوا أن ينسوها . حتى إذا عاد اليهود المسيحيون من منفاهم إلى اورشليم بعد ذلك في عام ٤٠٠ قبل الميلاد ، احتقروا السامريين ، لأن دمهم لم يعد يهوديا خالصا ، بعد أن اختلطوا بالأجناس الأخرى . ومن ثم تآصلت العداوة بين اليهود والسامريين منذ ذلك الحين .

أما العشاريون ، فكانوا هم جباة العشور أى الضرائب . وكان اليهود يكرهون هذه الضرائب التي يفرضها الرومان عليهم كراهية شديدة ، لأنها كانت رمز عبوديتهم ، وبالتالي كانوا يكرهون جباة الضرائب من الرومان ، ولكن كراهيتهم كانت أشد لليهود الذين يعاونون الرومان في ذلك ، ولاسيما أنهم كانوا عادة من حشالة القوم . وكانوا في الغالب ممن لا ضمير لهم ، إذ كان الرومان يخولونهم جباية أكبر قدر من المال يستطيعون الحصول عليه من الشعب ، على أن يقوموا بتوريد الضريبة المقررة فحسب ، ثم يحتفظون بالباقي بعد ذلك لأنفسهم ، فكان كل منهم يبذل بطبيعة الحال أقصى ما يملك من جهد للانتفاع بهذا الوضع مهما ارتكب في ذلك من ظلم وعنت . وقد كان هذا النظام شديدا الوحشة على اليهود ، ولاسيما أنهم كانوا يدفعون إلى جانب الضرائب المدنية للمستعمر ضرائب دينية للهيكل والكهنة . وكانت هذه الضرائب تشتمل على نصف الشاغل المفروض على كل فرد ، وعشر المحاصيل النباتية . وقد بلغ من تزمت الفريسيين أنهم كانوا يوجبون اقتضاء العشر حتى على أعشاب الحقل . وذلك فضلا عن أبكار الحيوانات وأبكار المحاصيل والضريبة عن كل بكر في العائلة ، وذبيحة الخطيئة وذبيحة الشكر .

وقد اشتدت كراهية اليهود لجباة الضرائب الذين كانوا يعرفون بالعشارين حتى لقد كانوا يسمون بالزناة ، وصارت كلمة عشار مرادفة لكل ما هو مكروه وبغيض . ص ص ٣١ - ٣٨ .

(٢) قيل إن أول من اختط مدينة القدس من اليهوديين ( قبل العبرانيين بفترة طويلة ) هو ملكيصادق ، ولما تولى ملكهم سالام اليبوسى زاد في بناء المدينة وشيد على الأكمة الجنوبية المعروفة في يومنا هذا بجبل صهيون - برجاً للدفاع عن المدينة لحمايتها ، وقد أخذت المدينة اسمها منه فعرفت باسم ( أورسالم ) أى مدينة سالام ( اورشليم ) .

أحمد رمضان أحمد : تعليقاته على كتاب « اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى » وهو من تحقيقه القسم الثانى . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ ، القسم الثانى . ص ص ١٩٠ - ١٩١ .

## الفصل الثامن

مغادرة القدس - طريق بيت لحم - بيت لحم -  
جمال النساء في بيت لحم - برج ودير - رهبان  
يوساء - اسقف بيت لحم - طبيعته المسيحية  
الشرقية - مقدسات مشتركة للإديان السماوية  
الثلاثة - الوصول للبحر الميت - صيد الخنازير -  
أريحا - رسوم بوسنجر - تعليقات المترجم \*

كان يتحتم على الآن أن أغادر القدس فألقيت نظرة  
أخيرة على الجدران الداكنة لكنيسة الرب ، وسلكت مع كونت  
كابوجا Caboga طريق بيت لحم الممتاز ومررنا بالقرب من  
أدنى السور الغربي للقدس من بوابة دمشق التي يقع  
معسكرنا بالقرب منها \*

ويتعرج الطريق عند مدخل وادي قدرون بين مسطحات  
حجرية وشجيرات متناثرة وأعشاب قليلة ، وتتعاقب أمامنا  
الأسوار المهدمة للبيساتين وحدائق الزيتون ذوات الأشجار  
القزمية والمنازل الخربة . وعن أيامنا تقع المستوطنة  
الألمانية بمبانيها التي تشبه الثكنات العسكرية ، أما عن  
شمائلنا فليس إلا البرية الجرداء القفرة ، وأما أجمل المناظر  
في هذا المشهد كله فهو منظر مدينة القدس الذي خلفناه  
وراءنا بأبراجها وأسوارها والشرفات ( الفتحات ) المرتفعة  
في أسوارها \*

الطريق يصعد تدريجيا في المنحدر المقابل للوادي \*  
ونرى - بالكاد - تلا أجرد كان يقع عليه منزل كايافاس

**Caiaphas** ومررنا أيضا بالبقعة التي كان يمسك فيها  
الفلسطينيون عندما قاتلهم داود ، وإلى الأبعد توجد بقايا  
منزل سمعون المسن Aged Simeon وبئر ماجي Mage  
حيث ظهر النجم في الشرق مرة أخرى للرجال الحكماء .  
وسرعان ما وصلنا إلى سرج التل ( المنحني الذي يصل بين  
قمتين صغيرتين أعلى التل ) فوجدنا أنفسنا بالقرب من جدران  
بستان الدير اليوناني العظيم - دير مار الياس Mar. Elias  
بين أشجار الزيتون . المنظر من هنا جذاب - واد عريض  
حجري خضرت داكنة تتخلله شقوق ويرتفع ( من جوانبه )  
إلى أعلى - وترقد في أحضان بيت لحم . انه جمال في حاجة  
لريشة قنان .

والشقوق والأودية الصغيرة والانحدار العام للأرض -  
كل أولئك في اتجاه الجبال التي تحيط بوادي الأردن وتمتد  
خلالها إلى البحر الميت . وإلى الجنوب الغربي رأينا - على  
البعد - غابة من أشجار الزيتون ظهر من بين أوراقها الخضراء  
الداكنة برج المقر الصيفي للبطريرك الكاثوليكي Latin .  
وإلى الشمال حجب المنظر بسبب التل الذي عبرناه لتونا ،  
لكن إلى الغرب أعطت التلال الحجرية والأودية الصغيرة  
والهضاب تباينا ( اختلافا ) في طبيعة المنطقة .

وبعد أن هبطنا التل في ربع ساعة آتيناه إلى جدار بستان  
قلعة تنتور Tantar المالطية الصغيرة . لقد بنيت هذه  
القلعة في العصور الوسطى وتقع على منحدر جبل وذكرتنا  
بأيام الصليبيين . ويرفرف العلم المالطي ذو الصليب فوق  
المبنى ، وتحمل المباني المجاورة المعدة لتكون أماكن ضيافة  
واقامة - شواهد على مزايا نظام الفرسان القديم ، وعبرنا  
البستان إلى الجدار الثاني (المقابل) حيث وجدنا بقايا عتيقة  
في وسط ساحة مرصوفة . وقد خصص الكونت كابوجا

Caboga هذه القلعة ومبنى صغيرا ملحقا بها معدة للمقدسين ( الحجاج ) المرضى ولأهل البلاد . وقد وجد الحياة هنا طيبة طوال العام فكرس نفسه للدراسة الجادة وساعده خادمه فرديناند نيكوديموس Ferdinand Nicodemus وهو مسيحي سوري شاب ومتعلم تعليما جيدا ويعمل كصيدلى ماهر فى هذا المكان . وهو - بالاضافة الى ذلك - تابع مختص وفارس ممتاز وحاد الذهن وبارع فى التعامل مع أهل المنطقة ، وقد صحبنا خلال كل رحلتنا فى فلسطين ، لذا فقد كان محل تقديرنا .

وفى اللحظة التى دخلنا فيها الساحة ( المرصوفة أنفة الذكر ) ظهرت الكلاب العربية الضخمة من كل جانب - انها مخلوقات جميلة ليست ككلابنا المجرية من نوع الولف Wolf dogs ( الكلاب الذئبية ) . وقد حيت هذه الكلاب سيدها وراحت تصدر أصواتا تنم عن فرحها . والكونت كابوجا Caboga محب للحيوانات ودجن أكثر أنواعها تباينا وظل محتفظا لمدة طويلة بضبع مروض تماما ، والآن فان خروفا آسيويا جميلا قد تبغه وصعد معه الى غرفته ، وقد هبط ببغاء ذو عرف من نوع اكوكاتو Cockatoo - يسير حرا بين الحمام - من البرج ، ليستقر على كتفه ( كتفه الكونت كابوجا ) .

وبعد أن تفقدت القلعة كلها صحبت فرديناند ومساعد الصيد التابع لى للموضع الذى كانت تبدو فيه الضباع ليلا . لقد عدنا مسافة قصيرة فى الطريق الذى سلكناه ، أثناء هودتنا من القدس ، وتحت دير مار الياس Mar-Elyas ببضع مشين من الخطوات كان هناك جدار قديم من أحجار ضخام غير مثبتة جيدا . وصنعنا شركا خباناه بعناية بالقرب من الطريق، وجعلنا حمارا عجوزا - فى حالة تعفن شديدة - فى مقدمة الشرك ، فالضباع تحب الفرائس العفنة .

ولسوء الحظ ، أننا افتقدنا القمر في هذا الوقت ،  
فخمنت ان أية محاولة لرؤية الحيوانات المفترسة ستذهب  
سدى في الظلام الدامس ، فما البال باطلاق النار عليها اذا  
كانت رؤيتها - مجرد رؤية - أمرا متعذرا ، لذا فقد كنت  
أحضرت معي كثيرا من الاستريكنين Strychnine (مادة سامة)  
تخسبنا لهذا ، لاستخدامه في الايقاع بالضباع ، فسحبنا رجل  
حمار في قرية جلدية وسممناها بقدر كبير من السم . وفعلنا  
كما يفعل الصيادون فسممنا قطعة صغيرة من لحم الحمار  
ووضعناها بالقرب من الرجل المسممة ، لأن معظم الحيوانات  
اعتادت تذوق قطعة صغيرة من فريستها قبل الاقبال على التهام  
الفريسة كاملة . وبمجرد أن انتهينا من هذه الاعدادات  
المقرفة ، وجهزنا المكان التي سنطلق منها النار ظهر عربى  
يحمل بندقية طويلة وعرض علينا خدماته . لقد كان شديد  
الرغبة فى صحبتنا ، وقدم لنا نصائح طيبة كثيرة وراح  
يقص علينا كل انتصاراته فى صيد الضباع . وكان من  
الصعب اسكاته . ان الوقت لم يحن بعد لمراقبة الضباع  
فراينا ان نعود للقلمة وأن نصحب هذا العربى معنا ، لأننا  
خفنا ان تركناه أن يفسد شراكنا التي وضعناها ومكاننا  
التي جهزناها ، فقد كان فرديناند يعرفه ويعرف أنه شخص  
غير جدير بالثقة ويتعيش من صيد طيور الجبل (بفتح الحاء  
والجيم) ، وهو يهيم على وجهه متشردا حول بيت لحم ، ويؤكد  
نظرة فرديناند هذه ما يتسم به هذا العربى من وجه مأكس  
ملء بالخداخ لذا ، فقد قررت أن أتحاشى ضرره وخداعه طوال  
هذه الليلة وحدها .

وتركت دليلي الشاب ليحرس الموقع الذى أعدناه للصيد  
حتى عودتى ، كانت الشمس تغرب ملقية ألوانها الذهبية على  
تنتور Tantur وبدت جبال وادى الأردن بأطيافها اللونية  
الغامضة ، وانعكست حمرة الشفق من المنحدرات الجرداء  
للجبال الواقعة وراء البحر الميت ، فذكرتنى بجبال الألب .

كانت السماء مغطاة بسحب ضبابية كأنها تتف الصوف وهب  
نسيم بارد رقيق عبر الهضبة . ولا يقارن المناخ في المناطق  
المحيطة بالقدس وفي خط الجبال بين بيت لحم والساحل ،  
بهواء مصر المعتدل والمضطرب والمنعش . فقد ذكرتنا الرياح  
العاتية بمدى ارتفاع الهضبة الجرداء ، ولم تكن العواصف  
الثلجية في شهر مارس نادرة الحدوث . فالغطاء النباتي  
وتغيرات المناخ وهواء وادي الأردن الخائق - كل ذلك واضح  
عند بيت لحم الواقعة الى الشرق من هذه البقعة بحوالى فرسخ  
( ما بين ٢ الى ٤ ميل ) .

وعدنا مع العربى المصاحب لنا الى القلعة ، فلما وصلنا  
اليها زودناه بلحم كثير وشراب ، وفي الوقت نفسه احتجزناه  
طوال اثنتى عشرة ساعة فى غرفة محكمة الاغلاق ، وتناولنا  
نحن أيضا عشاء فاخرا أعده رجال الكونت وفقا لطريقة  
الطبخ المحلية ، وأسرعت - بعد ذلك - عائدا الى مركز صيد  
الضباع الذى أعدهته . وكان الليل قد هبط أثناء ذلك ،  
ولسوء الحظ فان السحب الكثيفة زادت المنطقة ظلمة على  
ظلمتها .

وكان هودك Hodeek يقترب من السقيفة وأخبرنى أن  
بعض الضباع قد ظهرت بعد غروب الشمس مباشرة . لقد  
مكننا بصبر صلد فى مكمننا حتى منتصف الليل ، لكننا  
سرعان ما تحققنا من عدم جدوى ذلك فمن الصعب أن يرى  
واحد من الحيوانات التى نريد صيدها مكان الحمار الميت ،  
فلو أن المنطقة كانت من صخور ناعمة أو كانت صحراوية -  
كما هو الحال فى مصر - لتوقعت نتائج أفضل ، لكن الموقع  
هنا - كما هو الحال فى كل المناطق المحيطة بالقدس - يضم  
صخورا ضخما ، وأحجارا تفصل بينها حشائش داكنة ،  
وأكثر من هذا فقد كنا مختبئين فى مكان ضيق يسبب لنا

عذابا حقيقيا . لقد كانت الريح مواتية للتريض والصيد  
وكانت تهب علينا من ناحية جنب الحمار حاملة معها زواجر  
مرعبة لا تطاق . وفي أحيان ظننا أننا ستمنعنا أصوات  
الضباع تزحف ، وبين الحين والحين كان بعض الناس يمشون  
في الطريق وهم يغنون ، وكانت كلاب القلعة تنبح بشدة  
وكانت طريقة نباحها شرقية حقا .

وفي منتصف الليل كان صبرى قد نفذ فعدنا للقلعة .

وايقظونى عند شروق الشمس فى الأول من إبريل  
فذهبت لأرى أثر سم الاستركتين . ولم تكن دهشتى قليلة  
عندما وجدت أن الحمار الضخم الثقيل ( المتعفن ) قد اختفى .  
وليس من أثر لسحب أو جر على الأرض . ولم يبد تغير على  
الحشائش ، وبدا وكأن حيوانا مفترسا عملاقا قد حمل الحمار  
الثقيل بعيدا ، لأن بعض القطع الصغيرة التى نثرناها حول  
جثته لم يمد لها وجود أيضا ، وبحشنا حولنا فوجدنا حيوان  
ابن آوى ضخما لا يبعد إلا بعوالى عشرين خطوة . كان حيوان  
ابن آوى هذا يختلف عن ابن آوى المصرى فسيقانه أطول  
وحجمه أضخم وذيله أقصر وأكثر شعرا . وكان فراؤه  
أصفر لا يقطع صفرتة غير خط أزرق يعترى زرقتة شئ من  
اللون الرمادى . يمتد بطول ظهره . لقد بدا المخلوق الجميل  
مختلفا عن أى حيوان ابن آوى آخر اصطدته من قبل .

وسرعان ما وجدنا آثار دماء تسير فى خط مباشر من  
الموضع الى الطريق ومن ثم عبر الطريق الى السور . وهنا  
أمكننا أن نرى أن الحمار ( النتن ) قد تم سحبه فوق الصخور  
لأن شعره ودماءه كانت متناثرة عند الزوايا الحادة ، ومن  
الناحية الأخرى ( الجانب الآخر ) تم حمل الجيفة مرة أخرى ،  
واتخذت آثار الدماء بعد ذلك اتجاه أحد الوديان العميقة  
التي تؤدى للجبال بالقرب من ( نهر الأردن ) .

وزحفت — بحذر — للأمام ، ونظرت من فوق رايضة صغيرة ، قرأيت على بعد خمسين خطوة للأمام شيئاً داخناً وإلى جواره حيوان صغير يرتقالي اللون ، لقد كان هذا الحيوان هو ابن مقرض ( بكسر الميم وتسكين القاف وكسر الراء ) وكان حيواناً مدهشاً جميلاً انيقاً انه ثعلب الصحراء ferret (desert fox) بأذنيه الطويلتين الخفاشيتين . لقد كان يتناول افطاراً مريحاً ، فماجلته بطلقة فهوى .

ولما أسرع للبقعة وجدت طريدتي وقد مالت برأسها على الحمار . وكما هي العادة ، فأننى تفحصت كل شيء بعناية ودقة . أما الحمار الضخم الثقيل — وهو من سلالة أسيوية كبيرة الحجم ، وكان كبير السن — فقد تم تجريده من لحمه ، وكان يمكننى أن أرى آثار أسنان طريدتي . لقد أتى حيوانى المتوحش على بقية جسد الحمار . لقد استطاع ابن مقرض ( ثعلب الصحراء ) احضار حمار كامل الى هذه البقعة . انه لم يسحبه بل حمله فوق ظهره . والضباع ضخمة جداً وقوية ولكنها ليست قادرة — فيما أرى — أن تفعل شيئاً كهذا ، كما أنها لم تتعود على نقل فريستها دون أن تتذوق شيئاً منها ، وانما هذا هو أسلوب الدببة . وشعرت بالاعتناع أن الدب الايزابيلي السوري الأصفر a Yellow Syrian Isabel-beer الذى ذكر برهم Brehm أنه رآه فى فلسطين ، قد أوقعنا فى هذه الخدعة ، أه لو أن القمر كان يدرا لكنا قد استمتعنا بليلة رائعة ، وعدت الى القلعة مغيظاً متعكر المزاج وتناولت افطارى . لقد كان الطريق ينص بالحياة : قوافل حمير وجمال محملة بالمؤن لسوق القدس وأمكن للمرء أن يرى أزياء متباينة ، وبشراً من رجال ونساء من أنواع تجذب العيون .

وسرعان ما ظهرت أمتعتنا وكل دواب التحميل التابعة لقافلتنا يقودها السيد هوارد Howard ، قادمة من ناحية بيت



المقدس فقد جمعت الخيام كلها فى الصباح ، وتجاوز السيد  
هوارد والدواب التى معه القلعة وتقدموا ليقيموا لنا معسكرا  
نقضى فيه الليلة التالية الى الأدنى من بيت لحم . وكان على  
الرفاق أن يقضوا فترة ما قبل الظهر فى القدس ولن يصلوا  
تنتور Tantor قبل الظهر ، فقضيت فترة الانتظار هذه  
فى مراقبة الطيور الكاسرة الكبيرة عند المكمن ( السابق  
اعداده ) . لقد تم سحب رأس الحمام فى الوقت نفسه الى  
أعلى السقيفة ، وكان لدى خطط لوضع السم فى الليلة التالية  
فى البقايا الأخيرة لحمارنا الرائع هذا .

ومرت اللقالق بأعداد كبيرة من الجنوب للشمال وسرعان  
ما تبعتها جماعات النسور اليومية . لقد أتت من قبل جبال  
البحر الميت قاصدة المدن - خاصة القدس - لالتهام الجيف .  
مئات من النسور وطيور العقاب واحدها فى اثر الآخر ، وكان  
المكمن - لسوء الحظ - قريبا جدا من الطريق الذى لا تكف  
القوافل عن المرور به ، ومن هنا ، فإن الطيور كانت تحلق  
عاليا ولا تغامر بالطيران على ارتفاع منخفض . نسر واحد  
كان لديه الشجاعة للمرور بالقرب من السقيفة عدة مرات ،  
وأخيرا دفع حياته ثمنا لجراته هذه .

### الوصول لبيت لحم :

وبعد ذلك عدت مرة أخرى للقلعة وانتظرت مع الكونت  
كابوجا Caboga وصول رفاق السفر ، وسرعان ما وصلوا ،  
راكبين خيولا تجرى خبيا الى ساحة القلعة ، وكان على أن  
أقص عليهم ما خضته من تجارب فى الصيد وأن أعرض عليهم  
ما اصطدته فى الساعات القليلة الماضية . وأمتعنا الكونت  
كابوجا بأفطار ممتاز ، وبدأنا رحلتنا القصيرة الى بيت لحم :  
بعضنا على ظهور الجياد وبعضنا الآخر فى العربات التى  
تجرها الدواب .

وكان الطريق الحجري السيي متعرجا بين الأسوار  
القديمة وحدائق أشجار الزيتون والبيوت الآيلة للسقوط ،  
كما كان الطريق ينحدر دائما نحو سفح التل الذي تقع عليه  
مدينة بيت لحم المشهورة مسقط رأس المسيح ( عليه السلام )  
(\*) Our Saviour .

واسم بيت اسم قديم جدا ويعنى باللغة العبرية ( موضع  
الخبر The place of breed ) ، ووفقا لما قصه الكتاب المقدس  
فإن هذه المدينة كانت مشهورة بسبب خصوبة المنطقة حولها ،  
وبسبب كونها مقرا لبيت داود the House of David .

واسم افراتا Ephrata — يعنى أيضا خصوبة المنطقة  
وكثرة ثمارها — كان يتردد فى أغاني وتحذيرات الأنبياء :  
« وأنت يا بيت لحم افراته وأنت صغيرة ، أن تكونى بين  
ألف يهوذا ، فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطا على إسرائيل ،  
ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » (\*\*) .

« And Thou, Bethlehem Ephrata, Though Thou be little among  
the thousands of Judah, out of thee shall. He Come, forth me  
that is to be ruler in Israel, Whose goings forth have been  
from of old- from everlasting » .

لقد تم تشييد بيت لحم على سفح التل . ان منظرها  
جدير بريشة فنان ، وتمتد المدينة على هذا التل لمسافة .  
وبين المنحدرات الصخرية توجد حدائق الزيتون والأعشاب ،  
مما يعطى المكان هواء المنتجعات الخضراء . ومنازل بيت لحم  
من أحجار ، وأسطحها مستوية . وتعطى قباب الكنائس  
وأبراجها ، وكذلك الأديرة والمدرجات فوق التل — انطبعا  
بأن هذه المدينة أكبر مما هى عليه فى الواقع .

(\*) الترجمة الدقيقة : مخلصنا . وأثرنا ما أوردناه فى الفن لأن المبنى المقصود

لا يختلف — ( المترجم ) .

(\*\*) ميخا ٥ : ٢ عن سيرة المسيح وكنيسة قصر الدويارة من ص ٤٢ — ٤٣ —

( المترجم ) .

وبعد أن تجاوزنا المساكن الأولى ، استندنا لنسبر في شوارع ضيقة ، غير مستورصفها ، وعلى الجانبين مساكن بها أشغال خشب غير رقيقة ، وجدران قديمة عابسة ، وأول انطباع يخرج به المسافر أثناء سيره في هذه الطرقات أنه في حالة صعود وهبوط مستمرين \* وعلى أية حال ، فقد كان ذلك مجالا للدراسة الاثنوجرافية الشائقة ، فبيت لحم أكثر شبها بالمدين العبرية القديمة من القدس فاليشر الذين يراهم المرء على أسطح منازلهم وفي الطرقات ، وفي الشرفات لهم صفات اليهود القدماء نفسها كما وردت في الكتاب المقدس (\*) . تماما كما نتخيلهم \* انهم يضعون على رؤوسهم عمام ضخاما وأثوابا زخرفوها بالزهور وصدريات متألقة ، والأثرياء منهم يلبسون ملابس كالتي كان يلبسها الفريسيون Pharisees أما الفقراء فيشبهون أولئك الذين سسمعوا كلمات الحياة والوصايا من شفاه يسوع المسيح عليه السلام ( المخلص Redeemer ) في الطرقات والميادين .

ان الوجوه يهودية بشكل واضح : الأنف الطويل المعقوف والبشرة الشاحبة واللحية السوداء أو الحمراء المضفورة لتنتهي بشعبتين ( تنتهي بنقطتين ) ، وهو ما نراه في صور السيد المسيح وحوارييه ، أما النساء فأكثر لفتا للنظر فهن ملتفات في أثواب واسعة مسبلة ملونة وقد لففن فوق رؤوسهن ثيابا بيضا ، وبشرة الواحدة منهن شاحبة وغيونها في الغاية من الجمال وكذلك ملامحها وشعرها \* جمال يفوق الوصف \* لم أر أبدا نساء أجمل من نساء بيت لحم \* أهذا العدد الكبير من النساء الجميلات في مدينة واحدة !! ان هذا لا يتأتى في أى مكان آخر \* ان المرء لا يستطيع أن يلاحق

(\*) مع انهم من المسلمين والمسيحيين ، وهذا يؤكد ما ذكرناه في حاشية سابقة في الباب السابع ، ان الارشيدوق لم ير فروقا عرقية بين أهل البلاد بصرف النظر عن دينهم - ( المترجم ) .

يعينيه هنا كل النساء الجميلات • عاصفة من الجمال تتلوها  
عاصفة أخرى • انهن نماذج من العذراء مريم النبيلة •  
والنساء الكثيرات منهن اللائي قرأنا عنهن في العهد الجديد  
يسرن هنا بشحومهن ولحومهن • فالمسافر المدهش يجد نفسه  
وقد انتقل في حلم الى أيام السيد المسيح ( المنقذ  
Saviour ) عندما أوت مريم العذراء الرجل الطيب في  
اصطبل بائس ، وعندما تتبع حكماء الشرق - القادمون من  
وادي الأردن حيث ممالكهم البدوية المتحررة موجودة كما  
هي موجودة الآن - النجم •

ان بيت لحم ومواقعها المقدسة هي بالضبط كما نراها  
في صور رسامي العصور الوسطى الأتقياء ، وكما نراها في  
التماثيل والنماذج الملونة التي تقدمها للأطفال في أعياد  
الميلاد •

وسكان بيت لحم معظمهم مسيحيون ، وجملة سكانها  
خمس آلاف نسمة ليس منهم الا ثلاثمائة مسلم (\*) •

وخرجنا من الشوارع الى ميدان تحيط به منازل شرقية .  
في أحد جوانبه تقع كنيسة العذراء العظيمة والبنائيات  
الأخرى ملتصقة بها • ان أكثر البقاع قداسة موجودة تحت  
سقف واحد ، وهي أماكن مقدسة للكاثوليك Latin  
واليونانيين والأرمن ولكل من هذه المذاهب الثلاثة دير خاص  
بمعتنقيه ومتصل بالكنيسة •

وانتظرنا راعي ترسانتا Terra Santa عند البوابة  
الكبرى للكنيسة مع بعض الفرنسيين ، وكان الميدان  
مزدحماً بالناس وتسلمنا مالا يحصى من الالتماسات في  
غضون دقائق قليلة • كانت الكنيسة قديمة وجميلة ، ذات  
أصل بيزنطي ، وقد بقيت منذ أيام الامبراطور قسطنطين

---

(\*) ومع هذا فقد رأى فيهم الملامح البيزنطية الواضحة . مما يؤكد خرافة التمييز  
العرقى - ( الترجمة ) •

الذى شيدها • وداخل الكنيسة يدهش المرء لكثرة الصوامع  
التي أضيفت بمرور الزمن ، كما يدهش لكثرة الأبواب  
الضيقة والمنخفضة والتي لا يستطيع المرء أن يجتازها الا بشق  
الأنفس • وهدف خفض هذه الأبواب وتضييقها هو حماية  
الاماكن المقدسة من غارات القبائل العربية التي لا تبعد  
مضاربها كثيرا عن هنا والذين لا يحكمهم قانون بالمرة •  
وتحمل الكنيسة بمصلياتها وصلاتها الطابع المسيحي الباكر  
فى العصر البيزنطى •

ومما لا يبعث على السرور أن كثيرا من أعمال الخزف  
القديمة وكذلك الرسوم قد تأثرت أو تساقطت وأن التماثيل  
قد كسرت • والكنيسة — بشكل عام — لا تحظى بالصيانة  
الجيدة • ويرى المرء داخلها — حيثما التفت — نتائج الطول  
الوسط ( التسوية ) بين المذاهب الثلاثة ، فالمذابح ( جمع  
مذبح ) وأجران المعمودية fonts وأضرحة قديسى الأديان  
المختلفة the different religions (\*) كلها جنباً الى جنب ، وثمة  
أعداد غير قليلة من القسس الفرنسيسكان اليونانيين • وقد  
حضر هنا عدد قليل من المقدسين ( الحجاج ) ومعظمهم من  
الفلاحين الروس ، لكن العدد الأكبر كان من سكان بيت لحم  
لأن معظم سكانها من المسيحيين ، وقد تبعونا فى جولتنا ،  
وكان من بينهم من يحمل أجمل ملامح يمكن للخيال أن  
يصل اليها •

وكانت المغارات المقامة تحت الأرض هى أكثر المواضع  
اثارة ، وقد وصلنا لمصلى الميلاد Chapel of the Nativity  
ذات النور المتألق عبر مجموعة طويلة من السلالم وخلال  
أبواب من ( داخل ) الكنيسة • ويوجد المذبح فى محراب الى

---

(\*) ربما يقصد المذاهب المختلفة ، وربما كان التعبير مقصودا وقد أن الخلاف بين  
الكاثوليكية والأورثوذكسية اليونانية والأورثوذكسية الأرمنية عميق لدرجة أنه اعتبرها  
أديانا — منفصلة — ( المترجم ) •

الشرق ، وبه نجمة فضية ملتصقة بالجزم الداخل منه ،  
وحوله هذه الكلمات :

« Hic de Virgine Maria Jesus Christus natus est ».

وتترك الحجرة الضيقة العابسة أثرا كبيرا فى مشاعر  
المقدس ( الحاج ) ، ويشير الايمان القديم المطلق بالحقائق  
الروحانية وثقل التراث والايمان الراسخ بأن المسيحية قد  
ولدت هنا ، وأنه من هنا انتشر هذا الدين الذى غير وجه  
العالم - كل ذلك يثير مشاعر وقورة وسامية ، فالمقدس  
( الحاج ) يركع - من تلقاء نفسه - على ركبتيه ويقبل الحجر  
الذى ضغطت عليه آلاف الشفاه قبله ، أخذا على نفسه عهد  
الاخلاص بوجد دينى شديد .

والى الأدنى ( الأسفل ) بثلاث خطوات يوجد مصلى المهد  
Chaple of the Cradle ، حيث يوجد مهد السيد المسيح وفقا  
للمرويات - وفى مواجهته أطلعمونا على البقعة التى ركع فيها  
حكماء الشرق الثلاثة أمام الطفل المقدس The Divine Child  
اجلالا وولاء .

وفى ممر تحت الأرض وصلنا لفجوة فى صخرة جرداء  
أنفجر منها ينبوع ماء للعائلة المقدسة ، وثمة باب يؤدى الى  
ممر آخر حيث أطلعمونا على البقعة التى تلقى فيها يوسف  
الأمر بالهروب الى مصر ، والى الأدنى توجد مصلى كالكهف  
هى مصلى البراءة Chapel of Innocents حيث خبأت أمهات بيت  
لحم أطفالهن الذين أمر هيرودوس (\*) بذبحهم .

وأدى بنا الطريق بعد ذلك الى مذبح القديس يوسيببوس  
من كريمونا Cremona وقبره ، وهذا القديس كان تلميذا  
للقديس جيروم Jerome ، وقد تم اغلاق قبر هذا

(\*) الوال اليهودى الذى عينه الرومان - ( المترجم ) .

القديس الذى يعد من آباء الكنيسة ( يوسيبوس ) قريبا ،  
ورائنا بالقرب منه مصلى منحوتة فى صخرة حيث كان يعيش  
ويحتب . وبذلك تكون قبر رايثا كل المواضع الواقعة تحت  
الأرض ، فصعدنا مستخدمين السلم عبر كنيسة سانت كاترين  
St. Catherine لندخل الدير الكاثوليكي The Latin Convent  
انه دير بسيط لكنه يحظى بصيانة جيدة وقد أمتعنا  
الفرنسيكان فى حجرة الطعام الملحقة بالدير بمشروبات  
حلوة معطرة Liqueurs . وبعد أن مكثنا قليلا دعانا  
الاسقف اليونانى بعيارات ودودة للغاية لزيارة ديرهم ، وهو  
— اى الاسقف اليونانى — رجل فى مستقبل العمر ذو لحية  
سوداء طويلة وملامح وسيمة وهو يونانى قح لطيف ودهش .

والدير اليونانى مبنى مسطح يسكنه رهبان مذهب  
القديس بازل the order of St. Basil ، وهم أرثوذكسيون  
— الى أقصى درجة — فى تنظيماتهم وطقوسهم التى تختلف  
اختلافا بينا عن الطقوس الكاثوليكية Latin . وجلست فى  
غرفة جرداء ليس بها أحد ، الا أنها — على أية حال — أتاحت  
لنا أن نرى من خلال نوافذها منظرا جميلا للمدينة  
وما حولها .

وقد جلست أنا وعمى والأسقف على كنية واحدة ، وما  
كدنا نجلس حتى ظهر القسس ليقدّموا لنا شرابا كريها  
horrid وتعللنا بمختلف العلل لنهرب من هذا المكان  
وذهبنا الى مغارة ( كهف ) اللبن Milk Grotto ، فوصلناها عبر  
مدخل عريض ودرجات ( سلالم ) قليلة . ووفقا للمرويات  
فقد سقطت هنا قطرات من حليب الأم على الصخرة عندما  
كانت العائلة المقدسة مختبئة هنا . وتزور نسوة كثيرات هذه  
البقعة اعتقادا منهن أن سكب حليب أئدائهن على هذه الصخرة  
سيزيد من ادراهن للحليب اللازم لأطفالهن . ويوقر  
المسيحيون والمسلمون هذا الفار والمذبح المقام به تابع

للكاثوليك ، وبعد أن استأذنا من رجال الدين الكاثوليك والأورثوذكس أسرعنا متجاوزين آخر مساكن المدينة على طول جانب التل بين بساتين الزيتون والأسوار الحجرية حتى وصلنا لمسكرنا الذى يقع بالقرب من قرية بيت ساحور Betsahur وهى قرية غير نظيفة لكن موقعها جيد .

وازدحم السكان حولنا بفضول ، ووجد العسكر الترك صعوبة فى اخلاء معسكرنا وسرعان ما ظهر صيادان وقدمتا خدمتهما . لقد كانا أخوين ظريفيين من أهل بيت لحم يلبسان الملابس اليهودية (\*) كاملة ويبدو عليهما شئ من التشرد ويتعيشان من صيد طيور الجبل . وكان أحدهما يتحدث الفرنسية بشكل جيد ويبدو أن له مقابلات مع عدة قبائل بدوية فيما يتعلق بأمور الصيد وقد أخذ على عاتقه أن ينظم أمر صيد تيروس الجبل ( الأوعال - جمع وعل ) وأن يقدم لنا نماذج حية وصغيرة السن منها . لقد كان مسيحيا مثل ( معظم ) سكان بيت لحم ، وحارب ببسالة فى الجيش الفرنسى ضد الألمان .

وقابله الكونت ليسبس Lesseps خلال رحلته فى فلسطين واتخذته خادما ، وعمل على ادخاله الجيش الفرنسى الذى كان متوجها الى الرين Rhine ، وبهذه الطريقة اشترك فى معركة ١٨٧٠ وعاد الى بيت لحم - بعد احلال السلام ليباشر عمله الاصلى كصائد طيور جبل .

لقد انطلقت أنا وهويوز Hoyos مع هذين الشابين لنفتش المنطقة استعدادا لفترة ما بعد الظهر ، وأثناء تقدمنا فى الوادى نحو الشرق مررنا ببعض القطعان ، وقد سرنى

(\*) ليس معنى هذا انهما يهوديان ، وانما الملابس التقليدية متشابهة فى الاديان الثلاثة - الترجمة .



كثيرا منظر ملايس الرعاة التي تحتاج لرسام يصورها لفرط  
طرافتها . ان المتعبدين الأوائل عند مهد المسيح عليه السلام  
( النص : the Cradle of the Son of God ) كانوا بالتاكيد  
يشبهون هؤلاء الذين يجوبون التلال بماعزهم وهم يغتنون  
أغانهم الرتيبة .

وأصبحت التلال أعلى ، وازداد انحدارها شيئا فشيئا ،  
وكانت مغطاة بحشائش صفراء . لقد لاحظت الآن أن هناك  
تغيرا فعليا في طبيعة الغطاء النباتي . وتعد بيت ساحور  
آخر قرية في هذا الاتجاه ، وعند بداية الجبال الخضراء  
الداكنة والغطاء النباتي ( المختلف ) للأردن تكون قد دخلت  
منطقة القبائل البدوية ، والحذر عندئذ واجب .

وتسلقنا التلال بجهد - لكن بشغف - ، فرأينا وسمعنا  
بعض طيور الحجل ، لكن القليل الذي لاقيناه في المناطق  
المجاورة لبيت لحم أصبح كثيرا هنا لكن فرصتنا في اصطياده  
كانت قليلة . وطفنا - مع صيادينا الماهرين - فوق بعض  
التلال راجعين في اتجاه القرية ودخلنا منطقة أشجار الزيتون  
وتحاشينا الحداثق .

والى الجنوب من سلسلة التلال التي تقع عليها بيت لحم  
وبيت ساحور يوجد واد عميق منيعج ، على جانبيه مدرجات  
ينمو عليها الزيتون والأعناب ، وبين هذه المنحدرات الصخرية  
وأكوام الحجارة تكونت فجوات وبيئات ملائمة مغطاة بنباتات  
ذات خضرة دائمة - وقد أعطت للرائي منظرا جميلا .

وكان بطن الوادى الضيق ممثلا بالكتل الصخرية  
الكبيرة والجدران القديمة والخزانات ، وثمة ممر ضيق صغير  
للقطعان يتعرج من القرية صاعدا جانب التل المواجه .  
وتسلقت أنا وهويوز Hoyos بين أشجار الزيتون والصخور  
بحشا عن الطيور التي كان صوتها مسموعا ، لكن الدوق الكبير

وبعض الرفاق الآخرين ظهرُوا فجأة في الجانب المقابل  
بالقرب من القرية ، وبدلوا جهدا كبيرا ليجلسونا نفهم  
بالإشارات أنهم سيمارسون الصيد في المنطقة الواقعة  
أسفل منا تقريبا ، لقد حالت المدرجات بيننا وبين القاء نظرة  
شاملة كاملة ، لذا فقد أسرعنا عابرين إلى المنحدر الآخر  
وعلمنا أن حيوان ابن آوى كبيرا حجمه كان يسير بتمهل إلى  
الأدنى منا ، عند أحد المنبسطات المدرجة التي كنا نحن فوق  
المنبسط الأعلى منها مباشرة .

ومن ثم فقد تفرقنا في مواقع مختلفة في الوادي لنكمن  
في انتظار هذه الحيوانات وهي خارجة من مكانها عند  
الغروب . وقد أكد رفيقي الشرقي أن السواوي *Wawia*  
يحب أيضا هذا المكان كثيرا ، فالعرب الفلسطينيون يسمون  
ابن آوى باسم الواوي *Wawi* وليس ( تلعب ) كالمصريين ،  
وبشكل عام فالحديث باللغة العربية هنا يختلف كثيرا عن  
حديث المصريين بها ، كما أن اللغة العربية هنا أكثر غموضا  
( فهمها أصعب ) .

كان المساء جميلا وشاهدنا غروب الشمس ، وعادت  
القطعان ومعها الرعاة ، وكان منظرهم رائعا ، واختلطت  
أصوات الأجراس بأغانيهم ، وكان في استطاعتنا أن نسمع  
السلام المريمي *Ave Maria* يدق في بيت لجم ، وامتدت  
الظلال ، وتلاشى الشفق الأحمر من جبال البحر الميت وطارت  
الطيور إلى مجاثمها ، وانزلق ابن آوى كالشبح عبر الوادي ،  
واتجه نحو مكمنى لكن الرياح لم تكن مواتية واختبأ الحيوان  
الماكر خلف بعض الصخور . أن الوديان الصغيرة المنعزلة في  
فلسطين تشهد تحركات غريبة ومسموعة ، فالمرء يمكن أن  
يتخيل أن هذه الأودية ملائمة للحيوانات المفترسة : الضباع  
وحیوانات ابن آوى والذئاب تتجمع وتعيوى بالقرب من  
القبور . لقد غادرت المكان الذي تسوده برودة غير شديدة ،

قبل أن تصبح الظلمة جالكة وأسرعت متجاوزا القرية الى المعسكر ، وطار شبح ملائير غير بعيد عني فأطلقت طلقة عشوائية ، فهوى لقلق مسكين مصاب بجرح مميت .

وفي صباح اليوم التالي ، بدأنا مبكرا فركبنا الى بيت لحم . وجدنا هناك - مرة أخرى - زحاما شديدا فاندفعنا بخيولنا الصاهلة بصعوبة وسط الجموع الى باب الكنيسة ، واصطحبنا الفرنسيون الى مصلى المولد Chapel of the Nativity حيث كان القس يقيم القداس وتزاحمت الجموع أمامنا على المواضع المقدسة تحت الأرض ، وركعت بعض نسوة بيت لحم الجميلات جمالا مدهشا - ركن على الصخرة الجرداء - لقد كن متألقات تألقا غريبا في ضوء المصابيح الخافت .

وبعد ذلك اسرعنا للميدان حيث خيولنا وكانت هناك مفاجأة مدهشة تنتظرني ، فعلى شرفة منزل انطرح ضبع كبير حجمه ، وله شعر طويل حول عنقه ، وجلد مدهش ، وإلى جواره انطرح حيوانان من حيوانات ابن آوى كانا أصغر منه حجما ، ولونهما مختلف عن حيوانات ابن آوى التي رأيناها في اليوم السابق ، وكانا أكبر حجما من النسوع المصري *Canis aureus* ومنظرهما مختلف عنه . لقد أحدث السم أثره ، فمنذ يوم مضى كنا قد تركنا رأس حمار مشبعة بسم الاستركيثين ، ومن الطبيعي أن هذه الحيوانات الجائعة قد أكلت هذا الطعام بشراهة فلاقته حتفها . وأرسلت النخيمة على ظهر حمار الى النخيمة التي نحتفظ فيها بحصايد صيدنا .

وركبنا عائدين من الطريق نفسه ، الذي سلكناه البارحة الى تنتور Tantar - الى القلعة الملطية الرائعة . وعندما وصلنا اليها قررنا أن نمسح التلال الجرداء المجاورة شيئا فشيئا لنصطاد ما بها . فطلبنا أكبر عدد ممكن من مثري الطرائد من مكانها ، فجمعنا معنا خدم الكونت كايوجا Caboga

وساتسى الخيول فى معسكرنا والرعاة واهل المنطقة الذين خرجوا للتريض - كل هؤلاء صحبونا \* واتخذ بعض الرفاق لانفسهم موقعا فى الوادى عند المنحدر الجنوبي للتل لاطلاق النار منه ، اما انا وهويوز Hoyos ومساعدو الصيد فقد تبعنا لخط مثيرى الطرائد ، وعند اشارة متفق عليها بدعوا عملهم ، وساعدنا ايضا بعض جنود الدرك الاتراك ، وقد اظهروا براعة فى هذا النوع من الرياضة .

وراحت بعض طيور الحجل وطائر سمان بائس تصير امامنا وقفز ابن آوى امامنا ايضا - ولسوء الحظ ، فانها ، جميعا لم تكن فى اتجاه تصويب البنادق - ولم يحدث أن سقط صيد الا قرب نهاية عمل مثيرى الطرائد ، فقد طارت بعض الطيور فوق الرفاق واطلقوا النار فسقط واحد منها . واطلق كورنسكى Chorensky النار على ارناب برى داكن سورى اصيل ، فاصابه \* لقد كان ارنابا أكثر نحولا واصغر حجما وأدكن لونا من ارناب الحقول البرية عندنا ، وان كان يشبهها أكثر من شبهه للأرناب البرية الصحراوية فى افريقيا .

وبعد هذا النجاح غير الكبير تجاوزنا مكن الضباع الذى كنا قد أعدناه سابقا الى دير مار الياس Mar Elias ومنه كان يمكننا أن نحظى بمنظر رائع لمدينة القدس . لقد كانت هذه آخر نظرة نلقيها على القدس وما حولها فمند الآن يصبح اتجاهنا شرقا فشمالا .

ومن الدير سرنا لمسافة طويلة تصيد طيور الحجل البوهيمية Bohemian (\*) التى مرت أسراب منها ذات مرة فوق معسكرنا . لقد قطعنا مسافة طويلة فوق أرض تعلو

(\*) من بوهيميا - ( المترجم ) .

لتنخفض وتنخفض لتعلو ، تل يرتفع في اثر تل ، يفصل بينها ( التلال ) وديان عميقة . وجعلنا مثيرى الطرائد يسبقوننا وجعلنا مساعدى الصيد وباقى الرفاق فى الوسط ، وبهذه الطريقة أمكن مسح شريط أعرض من المنطقة .

الشمس حارقة ، والهواء راكد والسما زرقاء لا سحب فيها ووهج الظهيرة شديد ، وفى هذا الجو فان تسلق التل الاول كان عملا شاقا ، خاصة ، وجوانب التل شديدة الانحدار والحشائش القصيرة التى تغطيها زلقة ، وليس ثمة أحجار تصلح أن يتخذها المزم مستقرا لقدميه ، وانطلقت بعض طيور الحجل بعيدا وأخطأ كورنسكى Chorinsky أصابة حيوان من حيوانات ابن آوى ، وقتل الدوق الكبير حية كبيرة جدا كان صيدها يحتاج الى طلقة مصوبة تصويبا دقيقا .

لقد تسلقنا حتى القمة تلين أخضرين تكسوهما الحشائش ، لسكن مثيرى الطرائد كانوا يتبعوننا متكاسلين . وشيئا فشيئا افتقدنا الخطط الأوروبية المعكمة من حيث المساحات المتروكة بين المجموعات ، وشكل الزحف ( التقدم ) الصحيح المنضبط . ان المنطقة الآن ذات طبيعة مختلفة : منحدرات صخرية ملساء وكهوف ومغارات ، وبينها أسوار قديمة ومدرجات معدة لزراعة الأعشاب ، والزيتون ، وثمره وديان صخرية مثل الوديان الكائنة خلف قرية بيت ساحور - موجودة هنا بين هذه التلال . وما كدنا ندخل هذه المنطقة ( الصخرية ) حتى قفز حيوان من حيوانات ابن آوى من جانب احدى الصخور ، وكان أدنى منى مباشرة ، فأطلقت فى اثره طلقة فهوى ، لكن الحيوان الماكر - رغم جرحه المميت - اختفى مرة أخرى فى جحر عميق .

ولأننى كنت راغبا فى الحصول على غنيمتى فقد أرسلت مساعد الصيد التابع لى الى المعسكر ، لاحضار كلاب الدشهند

وانتظرت بالقرب من البيضة التي اختفى فيها الحيوان  
وأتمشني أحمد Achmed المخلص النشط بشراب ليمون ،  
وواصل بقية الرفاق طريقهم الى المعسكر ، وأطلق الكونت  
فالدبرج Waldburg طلقة مرت قريبة جدا من واحد من  
طيور الجبل .

وسرعان ما عاد مساعد الصيد التابع لي مع ثلاثة كلاب  
دشهند ، فجرى الكلب شيك Scheck — وهو أخيرها وأقواها ،  
وهو سلافوني بالمولد Slavonian — بشغف ودخل الجحر ،  
وتبعه الكلبان كروات Croat ( لعله من أصل كرواتى ) ( \* )  
وأوبكا Upeka ، لكن مرت لحظات قبل أن نسمع جلبة تحت  
الصخور . لقد ظننت في البداية أن ثمة معركة تجري مع  
الحيوان الجريح ، لكنني سرعان ما اكتشفت الحقيقة فقد  
القيت نظرة في الجحر تبين لي من خلالها أن الكلاب الشجاعة  
خارج الجحر .

اننا الآن في طريقنا الى المعسكر عبر جرف صدى سمب  
للغاية ، وتركنا الكلاب تفتش بعض الكهوف التي تبدو من  
خارجها آثار أقدام حديثة للشعالب وحيوانات ابن أوى ، ولم  
نر آثار ضبع الا مرة واحدة . ولم يكن لهذا البحث — لسوء  
الحظ — نتيجة ، وكانت الشمس حارقة وانهدت الكلاب  
سريعا بفعل الصخور الساخنة .

وسرعان ما وصلنا للمعسكر ، وكنا في حاجة للراحة  
لساعات قليلة ، وقبل الغروب تسلقت مع فالدبرج Waldburg  
المنحدرات القريبة من الوادئ نفسه التي كنا قد أعدنا فيها  
في المساء الماضي مكننا لصيد حيوانات ابن أوى ، ولم تنجح

---

( \* ) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

محاولاتنا في الامساك بواحد من طيور العجول كان يقفز حول الصخور ، كما لم يسفر بحث الكلاب عن شيء ، فاقنعنا نفسيينا بتسلق المنحدر المواجه الى قمته لنلقى نظرة على جبال البحر الميت ، وكان المنظر جميلا . وعدنا - وقد هبط الليل - الى المعسكر ، وسرعان ما غمر السكون المكان واستغرق الجميع في النوم استعدادا لرحلة الأيام القادمة في وادي الأردن .

وفي الصباح الباكر لليوم الثالث من الشهر عم المعسكر حركة ونشاط فجمعت الخيام وتم تحميل الأمتعة فوق ظهور الجياد ، ووصلنا من تنتور *Tantur* ضبعان بالاضافة لما عندنا ، وكانا ضبعين جميلين كانا قد تناولا جانبا من رأس الحمار المسمم .

وصل الى المعسكر بعض البدو من الجبال الواقعة الى الجنوب الغربي من البحر الميت ، كانوا أتباعا ظرفاء مفعمين رجولة ، وجوههم نبيلة وكانوا أقوياء ويشترهم أكثر دكانة . وكانوا من قبيلة فقيرة لكنها قوية وغير ملتزمة بقانون . وكان احدهم - ربما كان هو شيخ القبيلة - يضع فوق رأسه عمامة ، جانب منها ملون ، ويلبس ثوبا أبيض تماما وحذاء أصفر وثبت في وسطه سيف تركيا معقوفا ذا نصل واحد ، ولم تكن تعبيرات وجهه ، ولا ملامحه الدقيقة ولا فمه المحدد بحسدة والذي تلعب حوله ابتسامة ساخرة ، ولا عيناه السوداوان النفاذتان ، لم يكن شيء من هذا يبعث على الثقة .

وكان هؤلاء البدو عربا خلصا في عاداتهم ومظهرهم ، وكانوا مختلفين تماما عن سكان بيت لحم ذوى الطابع العبرى ( اليهودى ) ( \* ) - وقد أتوا إلينا ليعرضوا بيع ثلاثة تيوبس

( \* ) رغم أنهم غير يهود - ( المترجم )

(وعول) من تيروس الجبل وقد اشتريتها منهم . وقد رغبوا  
الينا أن نعد حملة للصيد بين تلالهم الجرداء ، حيث تتوفر  
التيوس ( الوعول ) العربية ، وهى حيوانات جميلة لها قرون  
غضروفية طويلة - بأعداد كبيرة ، ولم يكن من الممكن اجتبايتهم  
لهذا العرض ، وهذا مما يؤسف له فلم يكن لدينا وقت ، فما  
هى الا أيام ونتجه على طول ساحل البحر الميت الى أقصى نقطة  
فيه عند الجنوب الغربى ، فكنت مضطرا - لهذا - رغم حزنى  
لضياع الفرصة - أن أرجع هؤلاء الأطفال داكنى البشرة  
لمضاربهم ، بعد أن واسيتهم بدفع بقشيش .

وكانت خيام المعسكر قد جمعت بسرعة غير عادية  
وتوجهت القافلة بارشاد السيد هوارد Howard نحو بير  
سبع Mar-Saba وركبنا مرة أخرى صاعدين الى بيت لحم  
حيث كان القس يرتل القداس ، واستاذنا من راعى تراسانتا  
Torra-Santa والفرنسيسكان التابعين له فى الميدان خارج  
الكنيسة ، وأحاط بنا زحام شديد وراحت نسوة بيت لحم  
الجميلات يتفحصننا بفضول ، وخوفا من أن تنهمر علينا  
الالتماسات مرة أخرى فقد أسرعنا تاركين الموضع المقدس  
الذى ولد فيه المسيح ( عليه السلام ) - لقد تركنا خلفنا آخر  
المدن وآخر سكان للأرض الزراعية ، وأصبحنا الآن  
- ولفترة - من قاطنى مناطق البدو الأحرار - البدو  
الحقيقيين .

وعند مغادرتنا بيت لحم كان علينا أن نمر على معسكرنا  
الحالى ، لكننا سرعان ما رحنا نضرب فى واد ضيق تحيطه  
التلال الخضراء الداكنة ، فاخفت من أمام عيننا بيت لحم  
وتنتور ومار الياس والجبال الحجرية والهضبة ومنحدراتها  
المزرعة .

لقد أصبحنا الآن نواجه منطقة لها طابع مناطق البحر  
المتوسط وطابع مناطق الاستبس الآسيوية والتلال الرتيبة .



التي يكسوها عشب قصير والوديان المنمرجة . وكان الطريق جيدا في البداية وكنا نستطيع في بعض الأحيان أن نردي مسرعين عبر المروج الخضراء ، لكن بعد ذلك سرنا عند منحدرات صخرية أكثر حدة وفي ممرات يتحتم فيها أن يكون سيرنا على الأقدام ، كما أصبح مسيل الوادي ( بطنه ) صخرية ، وكان البدوي يركب في المقدمة على حصانه المسرج خلق رغم أنه حصان كميت ( بنى مشرب بحمرة ) رشيق . لقد كان أحد شيوخ قبائل هذه الجبال . وكان يرتدي عباءة واسعة داكنة فوق سراويل خفيفة ، ويحمل سيفه المستوي ، وكذلك حذاءه الأصفر أثرا من آثار الفقر .

ولم نخس باختلاف كثير في الوادي الضيق . وقد غرست هنا وهناك لافتات سيئة للتخدير ، وكان هناك ما يدعونا للاعجاب بمهارة الخيول العربية التي تستطيع السير على الحشائش الزلقة والصخور الناعمة في مواضع يمكن أن تؤدي فيها أية خطوة غير محسوبة إلى السقوط في هاوية . ان عالم الحيوان غير ممثل كثيرا في هذه التلال المنعزلة . فكل شيء ساكن خلا بعض النسور وطيور العقاب ، وبين الحين والحين تصادف بعض طيور اللقلق .

ورأينا على البعد مضارب بدو على قمة تل بعيد ، ومن الخطأ الفاحش أن نظن أن الخيام ليست الا مواطن للسكن من قماش أبيض ولها شكل الهرم ، حيث تبدو مثلثة الشكل ويغمرها الهواء من كل جانب ، فالواقع أنه توجد خيام مظلمة منخفضة من الجلد . وتتصاعد عمود دخان أزرق من مضارب البدو تلك وكان الرجال والقطعان يتحركون حول مضاربهم الحالية ، ولا تسكن هذه المنطقة الا قبائل فقيرة جدا تتحرك بين الأراضي المزروعة في فلسطين وبيت لحم من ناحية ، ووادي الأردن من ناحية أخرى . انهم يتحركون بالقرب من حدود التلال وما حولها ، ويتركون قطعانهم وخيولهم وماعزهم تباشير الرعى في المنحدرات المعشوشبة

وينقلون مضاربهم متى دعت الحاجة . وغالبا ما يأتون  
بالقرب من المدين ليتاجروا بماشييتهم لكنهم لا يتلبثون هناك  
الا قليلا ، وهم يعترفون بسلطة السلطان ( العثماني ) ،  
ويدفعون من الضرائب وفقا لما يناسبهم ، وغالبا ما لا يدفعون  
شيئا ، فالسلطة ( العثمانية ) لا تزعجهم في شيء . وهذه  
القبائل الصغيرة غالبا ما تنهب الماعز بينها وغالبا ما يكون  
ذلك بسبب سرقة الماشية ، أو سرقة فرس وهذا الوضع الأخير  
( سرقة فرس ) نادر الحدوث .

الحياة الحقيقية للقبائل البدوية الكبيرة والقوية  
والغنية تبدأ عند نهر الأردن ، فعلى الساحل الشرقي للنهر  
تعيش الجموع الهمجية دون أى سلطان عليها بالمرّة فهم  
لا يعترفون بالسلطان ( العثماني ) ولا بخلافته ، وإذا تواثت  
القوات المسلحة التركية قليلا ، فإن هؤلاء البدو يسبحون  
عابرين النهر المقدس ( نهر الأردن ) ليخربوا الارض  
المقدسة .

ووصلنا لنهاية الوادى الضيق بعد رحلة طويلة ، وادى  
بنا الممشى ( الذى يتحتم السير فيه مشيا على الاقدام ) الى  
قمة الجبل العالى ، ومن هناك تجلّى لنا منظر بهى ، فتحتنا  
مباشرة منحدر حاد . وعند قاعدته واد دائرى تحيط به  
التلال العالية ؟ الى اليمين وإلى الشمال تجد مالا حصر له من  
القمم العالية والحيود ridges والتلال الممتدة لمسافات  
بعيدة وكلها ذات لون أخضر داكن . انه منظر استبس حقيقى  
( سهوب حقيقية ) ، ويؤدى ممر ضيق يشبه المسيل الى الخروج  
من بطن الوادى وذلك فى الاتجاه الجنوبي الشرقى . ومن  
خلال هذا الممر الضيق يمكن للمرء أن يلقي نظرة غير شاملة  
( نظرة قريبة محددة ) على مياه البحر الميت عميقة الزرقة  
وعلى الجروف العارية البيضاء لسلسلة الجبال الجميلة على  
الساحل المقابل .

الممر يهبط متعرجا على طول المنحدر الشديد الذى تقف الآن عند نهايته الدنيا ، لكن الجزء الأكبر من خيول التحميل التابعة لقافلتنا كانت لا تزال تكافح فى هبوط هذا المنحدر الصلب كما يدل على ذلك رنين أجراسها المتواصل ، بينما وصل أسرعها بالفعل الى الوادى ، ونصب خدمتنا الذين لا يكلون الخيام الأولى فى بقعة حجرية مستوية .

وواصل الرفاق طريقهم للخيام بينما فضلت أنا وممى الدوق الكبير أن ننتظر على البعيد حتى يتم اعداد المعسكر بالكامل ، وفى هذه الأثناء أعددتنا شركا ووضعنا طعاما ( حيوانا مذبوحا ) واختبأنا خلف إحدى القمم التى تتيح لنا الاقتراب دون أن تلاحظنا الطيور . مئات من النسور والعقبان ( جمع عقاب ) تأتي من جبال البحر الميت وتتمر سرىا وراء سرب فى الاتجاه نفسه . ان هذه الأسراب تتخذ رحلتها اليومية لمدينة القدس بدقة بالغة ، فهى - لهذا السبب - لم تلق بالا ولو بنظرة خاطفة لشركنا هذا ، غير أن غرابين وواحدا من نسور الجيف حلقت فوق الموضع دون أن تهبط .

كانت الشمس تحرق بعنف وليس من نسمة هواء تتحرك ، ولا من سحابة واحدة صغيرة فى هذه السماء الداكنة زرقتها .

وبعد ساعة غادرنا بقمعتنا المختارة وسحبنا ذبيحتنا ( شركنا ) وراءنا - لأننا كنا راغبين فى استخدامها فى الصيد فى اليوم التالى - وهبطنا سيرا على الأقدام الى بطن الوادى .

لقد هبطنا أدنى فأدنى ، وكلما هبطنا أصبح الهواء ثقيلًا شديد الوطأة . كان الجو البارد كالرصاص يسود جوانب الوادى . انه أول تخية يقدمها لنا البحر الميت ووادى الأردن . وفى غضون الأيام القليلة القادمة كان علينا أن نتعلم كيف نرهب هذا الجو ونخشاه .

وسرعان ما وصلنا للوادي حيث تمت إقامة معسكرنا  
بالكامل . لقد بدا في موقعه كمدينة صغيرة وساد نشاط  
مفعم بالحياة في البقعة المهجورة .

وظهر الصيادان العربيان اللذان تبعنا قافلتنا ومعهما  
مؤن كثيرة لمطبخنا ، وكانا يطلقان النار طوال الطريق أثناء  
قدومهما من لترون Latrun . لقد أحضرا معهما حصاة  
صيدهما : بعض طيور جبل الصنخور الصغيرة . انها المرة  
الأولى التي نصل فيها لمناطق انتشار هذا الطائر الجميل .

والمرتب بأسلحتهم غير الجيدة - لا يستطيعون إطلاق  
النار الا على الطيور الساكنة ( غير المحلقة ) ، فهم ينحسرون  
الى مكانها تحت غطاء ( ساتر ) بنى أو بنى به بقع صفراء  
يمدونه فوق عودين من أعواد القصب ، ويشركون في هذا  
الغطاء ثقبيا : ثقبان للرؤية وثقب لإطلاق النار ، ولا ترى  
هذه الطيور الغبية تلك الثقوب فتحدق في الغطاء المتحرك  
حتى يأتيها الخبر اليقين ممثلا في طلقات تهوى بها .

وتناولنا افطارنا حاملا وصلنا ، بينما كان الخدم  
الشرقيون يعدون - بمهارة وحذق - مواضع لقضاء الليل ،  
فكان لابد من تحريك كل حجر وفحص الحشائش بدقة . لقد  
كانت المقارب الضخام كامنة في كل مكان . لقد تعرفنا  
تماما على أصنافها الضارة الرديئة خلال الأيام الأخيرة  
لرحلتنا .

وبعد الافطار وافقنا على القيام بزيارة لدير Mar-Saba  
المشهور ، الطريق من المعسكر يسير خلال الوادي الضيق  
الأنف ذكرة ، كانت جوانبه المعشوشبة تنحدر بشدة للشمال  
واليمين ولكن - على نحو خطر مفاجيء - يغير شكله وينتهى  
كجرف صخري شبه عمودي الى مسيل حجري عميق .

الطريق يتعرج فوق الصخور عند أدنى حافة تنمو عليها الحشائش ، الصخور الى الأدنى منا في كل المسيل ( الوادي الصغير ) الغابس المظلم مليئة بالكهوف والزوايا والشقوق ، حيث تتكاثر أعداد كبيرة من حمائم الصخور والبازات الحمراء جنباً الى جنب ، بسلام وهدوء \* وفي كل خطوة كنا نخطوها كنا نسيب ازعاجاً لهذه الطيور التي راحت ترفرف باجنحتها فزعاً ، منتقلة من أحد جوانب المسيل الى جانب الآخر \* وفي غضون نصف ساعة وصلنا لبرج قديم من أبراج المراقبة يقع على حافة الصخرة وعند انحدارنا من أعلى لم نر أية دلائل على وجود مؤسسات أخرى من المؤسسات الكنسية واسعة الانتشار والمطمورة بين صخور المسيل \* وعند البرج لابد للمسافر أن يقرع بابه المحكم الاغلاق بكل قوته حتى يتحرك قاطنوه خلف جدرانه السميكة ويفتحوا الباب ببطء \*

لقد كان على هؤلاء الرهبان البؤساء أن يتخذوا كثيراً من الاحتياطات لتأمين الحماية لأنفسهم ، لأن المسلمين يدبرون لهم كثيراً من المكائد غير الحسنة \* وفي سنة ٦١٤ للميلاد نهب هذا الدير للمرة الأولى على يد الجيوش الفارسية الغازية بقيادة خرزويه Chosroes (\*) \*

(\*) \* \* استغل ملوك الفرس من الساسان فرصة ضعف الدولة البيزنطية وغزوا بلاد الشام ، واستولوا على القدس بقيادة مرزويه خرزويه سنة ٦١٤ م فذبح عن سكانها مئتين ألف مسيحي وهدم كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والدور والقصور وأخذوا بطرد كل بلادهم أسيراً ، ويجمع المؤرخون أن الفرس قاموا بهذه الأعمال بتحريض من اليهود ، وأن اليهود قتلوا من المسيحيين أكثر مما قتلوا من الفرس ، إذا فقد كان طيبساً عندما استرد هرقل أيليسا سنة ٦٢٩ م من الفرس أن ينتقم من اليهود فراح يقتلهم بالآلاف \* \* \*

احمد ومطمان اسد : ملاحقه التي الحقها بكتاب « اتحاد الاخبا بفضائل المسجد

الاقصى » ص ١٩٣ \*

وفى سنتى ٧٩٦ و ٨٤٢ نهيت عناصر آسيوية أخرى هذا الدير أيضا ، ثم تكرر اعتداءات صغيرة أخرى ، ثم حدثت مذابح مهولة سنتى ١٨٣٢ و ١٨٤٢ ، حيث هاجمت القبائل الهمجية القادمة من شرق نهر الأردن الدير وذبحت كل الرهبان (١) . والآن فان كل مقدس ( حاج ) يرغب فى دخول الدير عليه أن يقدم خطابا للقس الذى عين شخصا عند شباك البرج كحارس ، ويقوم الحارس بدوره - مستخدما أدوات خاصة - بإرسال الخطاب ( الطلب ) لمبنى الدير الرئيسى . وتعود الموافقة بالدخول بالطريقة نفسها ( من الدير للحارس فى شباك البرج ، ومنه الى مقدم الطلب ) ومن ثم يفتح الباب . وبعد الغروب لا يسمح لأحد بالدخول حتى لو كان معه خطاب ، كما لا يسمح لأية امرأة بالدخول قبل الغروب أو بعده بأن تطأ هذه المستوطنة الدينية الصغيرة . وذلك وفقا للطقوس المتشددة للأديرة اليونانية .

ومررنا خلال البوابة الواقعة أدنى البرج وصعدنا عدة درجات لنصل للباب الثانى ، ومن ثم وصلنا لشرقة صغيرة مرصوفة بالواح حجرية بعد أن صعدنا درجات ( سلالم ) أكثر من السلالم التى صعدناها آنفا ، والطريق ينشعب هنا ، ويمكن للمرء أن يلقي النظرة الأولى على المناطق الداخلية لهذا المبنى المهم . انه مجموعة سلالم ( درجات ) وبسطات وشرفات وغرف معيشة ، وكلها من الأحجار ، وثمة سقائف خشبية قديمة وممرات سقوفها على عوارض خشبية ، ومصليات chapels وكهوف ومغارات تمتد على طول الجرف من البرج فى القمة الى بطن المسيل تقريبا . والجزء الأدنى لا يربطه بالدير الا سلم . وكان المدخل الى الأدنى قد تم تحصينه - بطبيعة الحال - ضد الذين يرغبون اقتحام الدير قادمين من الوادى ، باستخدام أبواب قوية ، واستخدام ممرات كثيرة معقدة للتضليل ( متاهة ) . ووصف مبنى

الدير وغرفته وملحقاته مسألة تحتاج لجهد ، وإن كان من خصائص هذا الدير أن المرء يرى في كل مكان سلالمة (درجات) وكثيرا من القذارة وقليل من الضوء ، وأحجارا جرداء .

وقد استقبلنا أسقف بيت لحم اليوناني عند المنبسط ( البسطة ) الأولى ، وكان يحيط به عدد كبير من الرهبان البائسين غاية البؤس ، وفي وسط المنبسط يوجد مبنى صغير له قبة يوجد به ضريح القديس سابا St. Saba - وهو قبر يحظى بكثير من الزخارف الثرية ، وبالقرب القريب منه توجد كنيسة القديس نيكولا St. Nicholas الصغيرة ( وهي على نحو أو آخر مجرد تجويف صغير في الصخرة ) ، وفيها تم حفظ جماجم الشهداء الذين ذبحهم خرزويه Chosroes أما الكنيسة الرئيسية للدير فهي عبارة عن باسيليقا يونانية خالصة وتضم كثيرا من الصور السوداء - على خلفية ذهبية - للقديسين ، وكل المواد الفنية الفضية المطلية بالذهب والفضية الخالصة التي يجدها المرء في أماكن العبادة الأورثوذكسية اليونانية - ورتل الأسقف اليوناني صلاة شكر عند حضورنا للمذبح أعقبها أغان كورالية أداها الرهبان ، وقر ترك هذا فينا تأثيرا طيبا جدا خاصة ونحن بين هذه الجدران المتيقة -

وتفقدنا مقبرة القديس كريستوروس Chrysorrhoeas الدمشقي ، وهو أحد آباء الكنيسة اليونانية الأوائل ، وكان علينا بطبيعة الحال أن نقبل كثيرا من المواضع والأحجار المقدسة ، كما كان علينا أن نستنشق كثيرا من البخور وعطر الورد . وبعد ذلك طفتنا بأرجاء الدير . ويميش خمسة وستون راهبا في صوامع المبنى الرئيسي للدير - وهي - أي الصوامع - على نحو أو آخر تجويفات في الصخر بنيت فيها سقائف Sheds خشبية - وعلى المنبسطات وفي الشرفات

وفى أى مكان متاح زرع هؤلاء الاخوة الاتقياء حداثق صغيرة ، مستخدمين تربة نقلت الى هنا بجهد جهيد ، وفى احدى هذه الحداثق الصغيرة توجد نخلة قديمة زرعتها القديس Saba بنفسه ومازالت حتى يومنا هذا تثمر بلحابدون نوى .

ان زيارة كل غرف الدير تعتبر عملا شاقا مرهقا ، فمرة نصعد سلالم ومرة نهبط ، وغالبا ما كنا نسير منعنين أنحناء مضاعفا بين الممرات المنخفضة ، وبالإضافة لهذا فان رائحة كريهة تسود المكان كله . وفى مبنى صغير منفصل كانت توجد غرفة بائسة لاستقبال الضياف ، وفيها إكرامنا راهب بتقديم شراب وردى اللون كريه الطعم .

ومن هذه الغرفة ذهبنا مستخدمين سلما خارج الباب الى مدخل كهف القديس سابا Saba ، وكان علينا أن نمر خلال عدة غرف مظلمة . وفقا للمرويات ، فان القديس وأسده أو سبعة ( الذى استطاع — بواسطة الدعاء والصلاة — أن يستأنسه ) كانا يعيشان معا فى مغارتين بسعادة . وكان ثمة قشن قد وضع حديثا فى المغارتين لأن الرهبان المتحمسين كانوا يقيمون من وقت لآخر فى هذه البقعة الكثيبة تأسيا بالقديس ، ورأينا بالقرب من المغارتين كهفا آخر محفورا فى الصخر اختاره راهب عجوز يرتدى أثمالا بالية ، ووجهه شاحب مغضن لفرط تعبده ( النص : religious excitement ) — ليكون مقرا له ، ويصل هذا الراهب لمستقره بتسلق درجات عمودية وعبور لوح خشبى ضيق مثبت الى الصخرة . وهو يعبر هذا المسلك الخطر يوميا ، وقد رأيناه يعود من الكنيسة الى هذا الكهف بهذه الطريقة الخطرة .

وقد القينا نظرة طيبة على المسيل من فوق أحد المنبسطات داخل الدير ، وكانت الجروف المقابلة على بعد



حوالى مائة خطوة وخمسين خطوة ، وكانت بها كهوف ومغارات ايضا لا يسكنها الآن الا حيوانات ابن آوى والصقور والحمام ، اما فيما مضى فقد كان يسكنها النساك .

والطائر الذى لم اره فى اى مكان اخر فى فلسطين موجود باعداد كبيرة على الصخور القريبة من الدير . انه طائر الزرزور الجبلى ، فخل الابراج والمنبسطات والاشقف والصخور مغطاة - بالمعنى الحرفى لكلمة مغطاة - بهذه الطيور الذكية ذوات اللون الأزرق المختلط بسواد ، ذوات الأجنحة البنية المائلة للحمرة ، وصدى تغريدها يتردد فى كل الاركان . وقد استأنسها أحد النساك لذا ، فإنه عندما يصدر صفيرا ويستدعيها فى ساعة محددة كل نهار ، فانها ترفرف بأجنحتها هابطة اليه لتستقر عند قدميه أو حتى فوق رأسه وعلى كتفيه وتأخذ قدرا ضئيلا من الخبز من يديه (\*) ، وحتى الحيوانات المتوحشة يغريها هذا المكان ، ففى كل مساء عند حلول ساعة الصلاة تظهر حيوانات ابن آوى فى المسيل وتنتظر حتى يلقي النساك لها قطعة من الخبز .

من كل هذا يمكننا القول ان المسيحية الشرقية قد بقيت هنا ساكنة ( لم تتغير ) عند مرحلة نساك الصّرون الأولى . فالمسافر مضطر للعودة بنفسه الى أيام نساك جبل أثوس Athos والأماكن المقدسة الأخرى شى فجسر المسيحية ، ففى الشرق

---

(\*) لا يخفى على القارئ المثقف من اى دين ان هذا يتم بالتدريب واستخدام اساليب علمية وليس له علاقة بالمعجزة بمعناها الدينى ، وقد كنت فى الستينات اشهد عم عبد القنى وهو ( حارى ) كان مشهورا فى شوارع بنها وأزقتها - يسير وقد حطت على كتفيه حمامتان ، فان طارتا عادتا وحطتا فوق كتفيه ، ولما طالت صحبتى بالرجل أخبرنى انه حصل على الحمامتين وهما مسفورتان جدا وخاط أرجلهما فى كتف معطفه ، وداح يطعمهما وهما على هذه الحال فترة من الزمن . فلما كبرتا الفتا كتفيه كعش لهما ولم تعودا تفارقانه الا لما ارى ان على الأقل انسنا اليه الى جوار عشهما الذى هبما لهما الى جوار سريره - ( المترجم ) .

البعيد لازل الاتقياء يطوبون ( يطوب - بضم الياء وتشديد  
الواو وفتحها - هو جعل شخص ما قديسا بعد موته ) ( \* )  
أولئك الاتقياء الذين قضوا حياتهم فى صلاة ( عبادة ) غير  
منقطعة فى الكهوف والصوامع Caves & dens .

هكذا كانت الكنيسة المسيحية الأولى ، انها شرقية ، وقد  
احتفظ دير Mar-Saba فى أيامنا هذه بالطابع القديم نفسه  
على مستوى النساك المتدينين فى القرنين اسالت والرابع  
للميلاد . انه ليس ديرا وفقا لنمطهم الأوربية ، وانما  
مستوطنة للنساك ، وهم مجموعة من المنعزدين يعيشون  
مستملين ولكنهم متجمعون فى بقعة ضيقة وسط أخطار تعيط  
بهم - لا مكان هنا للتعليم أو الرفاهية فى هذا الجبل ،  
لا شئ سوى الصلوات ، عبادة يومية مستمرة تتم تأديتها  
بالطريقة نفسها كل يوم ، ومحق كامل للذات وامانة كاملة  
للجسد . ان طفل القرن التاسع عشر ذا الممارسة الأوربية  
الخالصة لا يستطيع أن يتخيل مثل هذه الحياة ، انه الشرق  
وحده هو القادر على انتاج التعصب fanaticism (أو التطرف)  
الذى لازال ضاربا أطنابه فيه . وماذا عن الحاخامات  
rabbis الذين مازالوا ييكون عند حائط المبكى ؟ وماذا  
عن الدراويش الذين يقضون كل حياتهم فى التطواف  
والدوران وبتر أنفسهم ( ضرب أنفسهم ) ؟ فى أى شئ  
يختلف كل هؤلاء ؟ ان الجوهر واحد ، والاختلاف فى الشكل  
فقط .

ونساك دير Mar-Saba لا يأكلون الا الخبز  
والخضروات . وجرس الدير ذو الرنين العالى يدعو النساك  
كل يوم للكنيسة لأداء صلاة مشتركة ، وليلا - فى الساعة

( \* ) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

الثانية عشرة يقيمون قداسا ، ويظل اليوناني العجوز يرتل  
دون توقف حتى يطلع الصبح . ووجدت بعض الروس بين  
هؤلاء الاخوة وكذلك بعض الترانسلفانيين Transylvanians  
والسلافونيين Slavonian والبلغاريين ، لكن معظمهم  
يونانيون من أوروبا وآسيا الصغرى .

لقد جذبتني حكاية حيوانات ابن آوى التى تظهر كل  
مسام ، فاستأذنت الرهبان وهبطت السلالم وعبرت الممرات  
حتى وصلت المسيل وربضت بجانب بعض الأحجار بالقرب  
من خزان قديم . كانت البقعة قاسية موحشة - الصخرة  
الجرداء فى المقدمة ، ومساكن الرهبان الحجرية فى الخلف ،  
وفوق رأسى شقة ضيقة من سماء زرقاء ، وكلما اقترب المسام  
حلقت طيور الزرزور الجبلية والنسور والحمام عائدة الى  
أوكارها ، ولا يسمع تفريد طائر الا بين الحين والحين .  
يمكن للمرء أن يتخيل نفسه وكأنه يعيش أيام القديس  
St. Saba.

لقد بدأت الظلمة تهبط ، وارتفع صوت أجراس الدير  
عاليا داعيا للصلاة ، وما كادت آخر رنة من رنات الجرس  
تتلاشى حتى ألقيت قطعة خبز بجوارى ، وبعد لحظة ظهر  
واحد من حيوانات ابن آوى لا يبعد عنى بأكثر من عشرين  
خطوة ، فألقيته طلقا فتمدد . وكنت سعيدا أن أسرع  
بفريستى خارجا من هذا المكان الضيق المتعب الواقع على  
مستوى البحر المتوسط ( يقصد غير المرتفع ) .

الهوام قارس . لقد أحسست ببرودته كما لم أحس  
من قبل . لقد بدا وكأنه على وشك أن يخنقنى ، وشمل  
جسدى كله وكأنه حمل ثقيل . وفى الأيام التالية كان علينا  
أن نهبط أكثر ، ليسكون مستوانا أدنى ( من البحر ) ومن  
هنا كان الهواء أكثر سكونا ، ويكاد يخنق الأنفاس ويسبب  
البرداء ( الملاريا ) .

وتسلقت الطريق كله صاعدا لأعلى عبر الدير ،  
واستأذنت من الرهبان الاتقياء وأسرعنا خارجين من البرج  
عند القمة ، ولم نصل لمعسكرنا الا والظلام دامس ، فتناولنا  
عشاءنا ، وأعدنا نخططنا لليوم التالي ، وفي العاشرة عم  
السكون في هذا الوادى المنعزل .

وعند شروق الشمس تجمعتا لتناول الافطار ، وبينما  
كنا متحلقين حول المائدة ، هبط واحد من نسور الجيف بجراة  
وتهور في معسكرنا ، لالتهام بعض فضلات المطبخ من بين  
الخيام فأحضر الدوق الكبير بندقيته وأطلق النار على الطائر  
الجسور .

لقد وافقنا أن نتفرق أثناء ساعات الصباح في اتجاهات  
مختلفة ، فضعنا في معنى الدوق الكبير في واحدنا من أكثر  
التلال ارتفاعا كان يطوق الوادى . وذلك لنضع طعمنا  
( شركا ) فوق القمة ، بينما ذهب الرفاق الآخرون لصيد  
البحام في مسيل Mar-Saba .

لقد تسلقنا هذا التل لكن بعد فترة طويلة من العناء ،  
فقد كان المنحدر جادا وزلقا ، وكان علينا ان نرحف فوق  
صخور حمراء ملس ، وبدأنا بالفعل نشعر بالحرارة .  
وعندما وصلنا للقمة وجدنا مكنا ممتازا ، كان مساعد  
الصيد التابع لى قد أقامه بعد الظهر في اليوم السابق ، وجلسنا  
نراقب طوال ساعتين وأذتت الحشرات التى لم تكن نسعى  
لاطلاق النار عليها ، أما نسور الجيف فلم تظهر ، وبدأت  
تظهر مرة أخرى أسراب الطيور الجارحة ، متجهة للقدس ولم  
يفلح أى طعم أو افراء في تغيير مسارها .

وزحفتنا للأسفل فلم نحصل على شيء فاتخذنا أقصر  
الطرق للمعسكر الذى كان قد تم تجميع خيامه بالفعل  
وأصبح قابلا للنقل فى غالبه ، إذ لم يبق الا المطبخ فتناولنا  
فيه وجبة افطار خفيفة تعيننا على تحمل بقية الرحلة .

كان الرفاق قد أطلقوا النار على عدد من الحمام والنسور وبعض الطيور الأخرى الصغيرة في المسيل .

وكان علينا أن نستأذن من الكونت كابوجا Cabaga الذي كنا مدينين له بأفضال كثيرة ، فقد كان عليه أن يعود لتنور Tantar هذا اليوم ، لكنه أعارنى طوال فترة الرحلة الباقية خادمه فردناند وحصانه العربي الجميل الذي كان قد اشتراه من قبيلة بدوية ، والذي كنت أمتطيه يوميا منذ وصولنا للقدس . لقد كنت ممتنا تماما للكونت بسبب اهتمامه وبسبب حصانه الجميل الذي يتشبهت بالجبال وينطلق في السهول ويتحمل مشاق النهار وبرد الليل . وحالما استقر كل منا على ظهر حصانه انطلقنا للأمام يتقدمنا البدو .

كانت المنطقة أمامنا في البداية - لها الطبيعة نفسها التي للمنطقة حول معسكرنا ، لكن الوديان سرعان ما طارت أضيق والتلال سرعان ما أصبحت أكثر ارتفاعا ، ودخل مجل العشب أرض جرداء صفراء ، وألواح حجرية ضخمة ملساء . وفي حقل صغير تحيطه صخور وسطى البرية كان هناك طائران من طيور اللقلق ، ربما كانا مهاجرين ، وأطلقت النار على واحد منهما بينما كان يهيم بالطيران .

كان الطريق شاقا متعبا تماما للخيول وكان عليها أن تخطو بحذر تام ، فقد كان عرضة للسقوط في الهاوية إذا حدث أى خطأ ، فقد مررنا بما لا يحصى من القمم والتقاطعات العلوية المستدقة والجروف وعبرنا وديانا ومسيلات ، وكنا في حالة صعود وهبوط دائمين . لقد كانت الأرض متضرسة ليس بها أى أثر لجهد إنسانى يخفف وطأتها . وبعد مسير طويل غيرت الأرض من طبيعتها فأصبحت المنخفضات أخف وطأة ، واختفت الصخور وبدأت الحشائش الطوال والزهور الياضعة وكاننا في سهوب حقيقية في فصل الربيع .

وحجبت الجبال السمرام المصفرة التي تسلقناها آنفا  
باتجاهها من الجنوب للشمال - حجبت عنا كل رؤية نحو  
الغرب - لقد وصلنا لهضبة تعطرها الزهور وعيرتها أفراسنا  
عدوا - كانت الأرض يسرا فوثبت الخيول فرحا لخلاصها  
من الصخور الملساء والممرات شديدة الانحدار -

كانت السهوب رائعة غير كثيبة في رتابتها كالصحراء  
الأكبر بعدا والتي تنقسم بتأثيرها القوي - وأعطت الزهور  
المنطقة ميزة في الربيع - ومرة أخرى ترتفع التلال أمامنا  
متصلة بما يسمى جبال يهوذا Judaea - أنها تشرذم بعيدا  
من الاتجاه الذي ترى منه بقيتها ، وتتقدم في الهضبة بهيئتها  
الحادة ولونها الخاص وطبيعتها المميزة -

وكل هذه القمم المخروطية تتكون من صخور حمراء  
وطفل أصفر وأحجار خضراء وأخرى بنية وليس عليها من  
نبات البتة - وكان علينا أن نمر خلال مسيل عميق بينها  
وبين جبال فاصلة أخرى - لم نر سوى صخور ملساء وجروف  
أدنى منا - فحتى البدو المرافقون لنا ترجلوا وفي أحد  
المواضع لم نستطع السيطرة حتى على خطوات الخيول ، لكن  
هذه الحيوانات النشطة كانت تتبع قادتها بما يلائمها - لقد  
تعلمنا في أوقات كثيرة أن نقدر ما يتحلى به الحصان العربي  
من ذكاء فائق - لقد سقط حصان التحميل في هوة عميقة  
في أحد المواضع السيئة ، ولحسن الحظ فإن السقطة كانت  
على ظهره ، حيث كانت أمتعتنا تحت ظهره مباشرة أثناء  
السقطة ، ومن المدهش أن أقول أنه لم يصب إلا بخدوش  
قليلة -

كان الصعود من المسيل أفضل ، من الهبوط اليه ،  
وأصبح علينا أن نعبر السهل المعشوشب ، فعبرناه حتى وصلنا  
إلى النبي موسى Nebi-Musa بعد أن سرنا على طول القاعدة  
الشمالية للتل - وموضع النبي موسى موضع يزوره المسلمون

لقد استه (\*) اذ يقولون ان موسى ( عليه السلام ) دفن هنا .  
وثمة مسجد صغير آيل للسقوط ، ومنزل بائس لينزل به  
الزوار pilgrims الذين يزورون المكان بالآلاف كل عام .  
ولا يجوز لمسيحي أن يدخل هذه المنطقة أثناء الأيام المقدسة  
( المواسم والأعياد ) عند النبي (\*\*) والا أصبحت حياته  
معرضة للخطر .

وعندما وصلنا هناك ( للنبي موسى ) لم نجد أحدا هناك  
خلا أسرة تركية عهد اليها بالعناية بالقبر .

واقمنا معسكرنا بالقرب من المسجد . وكانت المنطقة  
رائعة جذابة فهي عبارة عن هضبة صغيرة يغطيها العشب  
والشجيرات الصغيرة ، تحدها من الجنوب جبال حمراء ، ومن  
الغرب جبال خضراء داكنة ، وهذه الهضبة تتخذ اتجاهها  
موازيا لوادي الأردن . لقد استمتعنا بمنظر رائع هنا لهذا  
النهر المقدس .

وكانت طيور الحجل تغرد في كل الجوانب ، وقسمنا  
أنفسنا لنمارس صيد هذه الطيور المتوقفة ، لكن - لسوء  
الحظ - كانت الشمس قد غربت بالفعل وبدأ الشفق  
الأحمر ، فأحطت ببعض طيور السماء بين الحشائش الطويلة ،  
وبعض أعداد كبيرة من الطيور الصغيرة كانت تطير من  
شجيرة الى أخرى ، الا أنني لم أكن بمستطيع اطلاق بندقيتي ،  
لأننا كنا بصدد العودة جميعا الى معسكرنا لنتناول عشاءنا ،  
ولننام بأمان الى جوار قبر النبي موسى ذلك الحكيم العظيم .

---

(\*) النسر : يحج المسلمون اليه

This is a considrable place of pilgrimage for Mohammdeans.

والمعروف ان لريضة الحج عند المسلمين مرتبطة بالكعبة المشرفة وبعض المشاعر الأخرى

بكلمة التكرمة - ( المترجم ) .

(\*\*) لم يحدد النص الذي المقصود - ( المترجم )

وعند شروق الشمس فى اليوم التالى بدأنا جميعا مرة أخرى . فقد سبقتنا القافلة الكبيرة سالكة أقصر الطرق الى عين السلطان مارة باريحا Jericho ، أما نحن فقد قمنا برحلة ممتعة للبحر الميت بارشاد البدو المرافقين لنا وحراسنا من جنود الحراسة ، لقد ركبنا من النبی موسى متجهين شرقا عبر منحدرات صخرية شديدة ، سالكين ممرات ضيقة وصعدوفا عميقة ، فوق أرض اردوازية ( لونها رمادى ضارب للون الأرجوانى ) خالية من النباتات تماما . وكانت بعض التسور تقف فوق الحيود الحادة والمساقط المتوازية التى تفصل بينها ممرات ضيقة ، وفى غضون ساعة وصلنا لسفح الجبل فوجدنا أنفسنا مرة أخرى بين شجيرات كثيفة وعلى أرض رملية ملائمة تماما للخيول . وثمة بقع غاصة بالشجيرات تتخللها مسطحات معشوشبة ، وقطعت خيولنا هذه المنطقة عدوا وهبطنا مسيلا قديما لكنه الآن جاف ، وواصلنا طريقنا بين خشائش طوال وأشجار باسقة حتى وصلنا للساحل الرملى المنبسط للبحر الميت .

كل خطوة كانت تخطوها الخيل على هذا الساحل المنبسط للبحر الميت كانت تسمع لها طقطقة — نتيجة تكسر القشرة الأرضية — كطقطقة قشرة الجليد ، فالرمال هنا مغطاة تماما بالملح الصخرى ، ويسمى العرب البحر الميت باسم بحر لوط ( أو بحيرة لوط ) منذ نزلت سورة لوط فى القرآن ( الكريم ) ، وهو بحيرة جبلية رائعة ، وهو عميق الزرقة كبير ومجدد شكله وتحفه من الشرق تلال داكنة خضرتها ، كنا نراها أثناء أيام رحلتنا الأخيرة قبل الوصول الى هنا ، وتحفه من الغرب جبال شامخة حقا ذوات ألوان رمادية فاتحة .

أما ماء البحر الميت فقير بغير بغير وهو مثقل — بشدة — بالمعادن الذائبة ، مما يجعل أى شكل من أشكال الحياة مستحيلا فيه ، ومن هنا فهو بحر ميت فعلا على الحقيقة ، وحاول بعض



الرفائق الفطلس فيه فلم يتمكنوا بالغطس فيه غير ممكن :  
ومن ناحية أخرى ، فان كثرة الأملاح الذائبة في مياهها تترك  
تأثيرها غير المريح على الجلد .

والهواء عند البحر الميت بارد كالرصاص ويشبه الهواء  
في المناجم العميقة ويسبب انهاكا شديدا ، ويرجع ذلك  
لانخفاض المنطقة فمياه البحر الميت عند مستوى ٢٦٤ مترا  
تحت مستوى مياه البحر المتوسط (\*) .

وقد ركبنا خيولنا لمسافة قصيرة بالقرب من الساحل ،  
ثم انعطفنا متخذين اتجاهها شماليا عبر مسطحات من رمل  
وطفل ، فرأينا عن أيامتنا سهلا يمتد الى فروج الأردن  
كثيفة الزروع ، أما عن شمائلنا ، والى الأدنى ، قشمة  
منخفضات مستنقعية مليئة بالغاب والورود البرية بكثافة  
شديدة .

وانعطف خنزير برى ضخيم أمام الخيالة تماما بالقرب  
من إحدى البيقع المستنقعية أنفة الذكر ، وفي اللحظة التي  
رأيت فيها هذا المخلوق الضخم قفزت من فوق حصاني  
وتتبعت أثره ، فلما درت حول مجمع النباتات الكثيفة التي  
لا يزيد محيطها عن مئات قليلة من الخطوات ، وجدت ما يدل  
على أن هذا الخنزير البرى لم يتوغل فيها بمد ، فبينت  
مواقع الرجال بسرعة وتركت جنود الحراسة يواصلون  
سيرهم ، وسرعان ما اتضح لنا عدم امكانية اخراجه من بين  
الحشائش والغاب ونبات الغليظ حتى لو كانت قصيرة ، فقد  
ذهبت كل جهودنا هباء ، وحاولنا اخراجه باشعال النار في  
الدغل لكن الحشائش فقط هي التي احترقت مرسله أعمدة  
دخان ضخمة في الهواء ، أما الشجيرات والنباتات الواقفة  
في الداخل الى الأعماق والتي تحظى بقدر أكبر من ماء النبع

(\*) نرى القرآن الكريم على ذلك - وهذا من الاعجاز التاريخي والجغرافي المدهش  
حيث - فوصف هذه المنطقة بأنها « أدنى الأرض » أي أكثرها انخفاضاً - ( الترجمة )

فلم تصب كثيرا بفعل النيران ، وبالتالي فقد كانت ملجأ آمنا لهذا الخنزير . وكان فشلنا مما يبعث على المرارة ، لأن كل الطرائد من السهوب والجبال القاحلة تتخذ لها مأوى فى هذه التجمعات النباتية الكثيفة التى لا يقربها بشر ، فالآثار التى وجدناها على الطفل السرط تنبىء عن ثراء فى الحياة الحيوانية فى هذه البقعة . وفى رقعة ضيقة رأيت آثار خنسايز برية مختلفة وآثار ضباع وذئاب وحيوانات ابن أوى ، وآثار نمور آسيوية Panther وآثار حيوانات الوشق ( بفتح الواو والشين ) بالإضافة لآثار حيوانات أخرى مفترسة لم أستطع تبينها ، وانطلقت من المياه أوزتان بريتان وكثير من حيوانات الشاطئ الصغيرة ، وانتشر سرب بجع وعقاب نسارى Osprey مخترقا سحب الدخان .

أما البجع فقد وصل الى هنا فجأة من البحر الميت وتزاحم حول النار لدقائق قليلة فحينئذ يامطلق بناذقنا ، وكان ذلك غير مجد فلم نصب منه شيئا ، وسرعان ما واصل تحليقه فوق الوادى مبتعدا ، متخذاً اتجاهها شماليا . ولأن الوقت لم يكن كافيا ، فقد غادرت هذه البقعة وعدوت بفرسى دون توقف فوق أرض ملائمة تماما : مناطق زملية ممتدة ومروج معشوشبة بين تجمعات نباتية مستنقعية كثيفة ومجموعات أشجار قصار بحيث يمكننى القول انها غابة صغيرة ، وعبرت بعض المجارى المائية الجبلية ذوات الشواطىء المهشمة والصخور الضخمة والنباتات البرية التى تنمو بوفرة ، مسرعين نحو الأردن حتى وصلنا لقرية أريحا Jericho .

وقرية أريحا Jericho تتكون هذه الأيام من بعض الأكواخ البائسة التى يسكنها أناس يؤساء يعانون من سوء المناخ وسمعتهم سيئة فهم معروفون بميلهم للسرقة ، ويحيط بالقرية سياج من شجيرات شائكة ، وثمة برج يرتفع كأخضر بقايا أيام مملكة الفرنجة Frankish Kingdom وإلى جواره

يقع — كما يقال — منزل زاكوس Zacchaeus وثمة شجرة  
جميز عتيقة يقولون ان الرجل الصالح شاهد عندها المسيح  
( عليه السلام ) Redeemer . ان هذا المكان بائس وخراب ،  
بينما كان مدينة مزدهرة في الأزمنة القديمة وحتى الحروب  
الصليبية .

وتجاوزنا — ونحن نركب الخيول — الأكواخ الخارجية  
للقرية ووصلنا الى السفوح الغربية للتلال ، بعد أن مررنا  
بحقول شعير برى وأشجار مزهرة . لقد كان هدفنا العاجل  
الذي نيفى الوصول اليه هو عين السلطان ، وكانت تقع الى  
الامام منا ، وعند هذه النقطة يمكن القول ان رحلتنا  
الحقيقية في وادي الأردن قد بدأت .

## تعليقات المترجم

### على الفصل الثامن

#### وثيقة العهد العفري

١٠ هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ،  
أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، ( صحيحهما )  
وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا يسكن كنائسهم ، ولا تهتدم ،  
ولا ينقص منها ، ولا من خيرها ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على  
دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود ، وعلى  
أهل إيلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا  
منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى  
يبلغوا مآمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه ما على أهل إيلياء من  
الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم  
ويخل بينهم وصلبانهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مآمنهم ،  
من كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل  
إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله لا يؤخذ  
منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة  
رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

كتب وحضر سنة ١٥ هـ

ششهد على ذلك : خصال بن الوليد ، عمسرو بن العاص ،  
عبد الرحمن بن عوف ، معاوية بن أبي سفيان .

Sophronius العهد العفري .

واتسلم البطريرك سفرونيوس



ومنذ هذه الوثيقة لم يهلم المسلمون - بالفعل - أية كنيسة أو اثر  
مقدس مسيحي أو يهودى بشهادة كل المؤرخين - حقيقة لقد حدث بين الحين  
والحين - فى عصور الظلام - بعض مظاهر التعصب ، لكن الآثار المقدسة  
المسيحية الباقية حتى الآن خير شاهد على التزام المسلمين فى مختلف  
العصور بالعهد العمرى .

أما ما حاق بالقدس من تغيير وتبديل أو تخريب ودمار، فكان على يد  
الفرس الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد كما طالع القارىء فى ثنايا هذا  
الفصل . ثم على يد الصليبيين أثناء فترة الحروب الصليبية يقول  
وليم الصورى :

- ان منظر المنتصرين ( الصليبيين ) وهم ملطخون بالدماء، كان يشير  
الرعب حتى فى قلوب الصليبيين أنفسهم ، أما ما أحدثه الصليبيون  
بالمسجد الأقصى ، فقد أنشأ جود فرى الذى اتخذ من حرم القدس قاعدة  
حربية له ولقواته . . . واتخذوا من أقبية اسطبلات لخيولهم ، أما ما أحدثته  
اليهود بعد ذلك فى المقدسات الإسلامية فمعروف مشهور ، وأما ما سيفعلونه  
بالمقدسات التى تخص المسيحيين وحدهم ، فأمر تمليه عليهم عقيدتهم ،  
ولا يمنعههم - الآن - من تنفيذه الا القوى المسيحية الكبرى ، والمصالح  
الاستراتيجية، أما صليب المعتقد اليهودى الذى يقول فى المسيح عليه السلام  
وأمه بهتاناً عظيماً ، فيحضر على كل ما هو مشين .

## الفصل التاسع

عين السلطان - العوجه El-Andje - عبد القادر  
- بيسان - تل طابور - التناصرة - رحلة الى  
حيقا - الشيخ علي - النظام الأبوي - خنزير برى  
يهاجم أحمد - كتاب التراتيل البروتستنتى فى  
مغارة - السباحة فى نهر الأردن - بحيرة طبرية -  
العقارب - تلدغنا - أصابتى بالحمى - تل طابور -  
جبل الكرم ( مار الياس ) - جغرافية المنطقة من  
العهد القديم - ذكريات صليبية - وغادرنا  
الشرق - رسوم بوسنجر - تعليقات المترجم \*

عند حدود الأرض الخضراء تتغلى الشجيرات الكثيفة  
الممتدة فى خط طويل واضح ، عن مكانها لتحل محلها جبال  
حجرية وعيون فوارة ، تفيض مياهها فى أحواض حجرية  
قديمة . وحيثما تنبثق الينابيع من الأرض أو تسيل غدراننا  
من الجبال ، تعم البركة فتخضر الأشجار والشجيرات وتونع  
الحقول . وتمتد هذه القطاعات الخضراء المتميزة بمروجها  
العريضة مع المجارى المائية من سفوح الجبال الجرداء حتى  
نهر الأردن . وعلى طول هذا الخط الأخضر المزهى ترى  
خطوطا ( قطاعات ) خضراء فرعية تخرج من الخط الأخضر  
الرئيسى لتلتحم بالخط ( القطاع ) الأخضر لمجرى مائى آخر .  
وسهل الأردن يشقه بالطول نهر الأردن المقدس بشواطئه  
الخضراوين ، وهذا السهل نفسه تقطعه بالعرض شواطئ  
المجارى المائية المتعاقبة التى تحفها السهوب والتربة الخصبة ،  
وأجمل واحة بين كل تلك الواحات هى تلك التى تبدأ من

عين السلطان وتهبط كشرائط أخضر عريض حول مجراها  
الى نهر الأردن \* وقد اقيم معسكرنا بجانب نبع عند سفح  
الجبال وحافة الخضرة \* ومن الآن فصاعدا تصبح رحلتنا  
من نبع الى نبع فلايد للمقابلة أن تراعى قريبا من هذه الينابيع  
عند عبورها في هذه المناطق -

وخلف معسكرنا يشمخ تل صخري أجرد مرتفع ،  
ناتئ من سلسلة الجبال المجددة للسهل ، ويفصله عنها  
مسيل \* ويقطن نساك يونانيون في الكهوف ، في جوانب هذا  
الوادي المنعزل وهذه المستوطنات - التي كونها زهاد  
ونساك - ظلت موجودة منذ بداية الحقبة المسيحية حتى  
آيامنا هذه \*

وكان في انتظارنا منظر رائع عندما سعدنا الى النبع  
فقد رأينا معسكر البدو الأحرار ( مضارب خيامهم ) عن  
شمال النهر \* خيول مدهشة رشيقة بيضاء ترعى الحشائش  
الخصبة وفرس كستنائية ( بنية محمرة ) رشيقة تقف الى  
جانب شجرة وتقضم من فروعها ، لقد كانت فرس قتال  
يملكها الشيخ على ذو الشعر الأشيب ، وقد جلس البدو الى  
جوار نار أوقدوها لطهي طعامهم \* كانت أثوابهم بيضاء  
طويلة ويضعون على رؤوسهم العمام وكانوا مسلحين بالبنادق  
والخناجر والسيوف المعقوفة وحيدة الحد \* وقد غرست في  
الأرض ، جنباً الى جنب - حراب طويلة من أجود أنواع  
الخشب ، وتعد هذه الحراب بمثابة شارة ( علامة ) للقبائل  
الكبيرة البدوية \*

انتظرني الشيخ على أمام خيامنا محاطا بأبنائه  
وأتباعه \* وكان هذا الملك (\*) البدوي الأشيب بملامحه  
الدقيقة النبيلة ولحيته البيضاء المدببة وقامته الطويلة

---

(\*) King والمقصود شيخ القبيلة ، والتعبير هنا مجازي - ( الترجمة )

وهدونه العصبى وهيئت المنتصبة - يرتدى ثوبا أبيض  
ناصعا به كثير من الزركشات والزينات \* وقد ثبت حول  
خاضرته سيفا تركيا مقوفا وحيد الحد ، وكان يلبس حذاء  
أصفر ويضع على رأسه عمامة كبيرة ، ومد يده المحلاة  
بالأحجار الكريمة - بتحية ودودة ، ووقف حوله - باحترام -  
أبنائه وشيوخ القبائل ، وتنم كل حركة منهم على الطاعة  
المطلقة له والحب والثقة فى حكمة زعيمهم وحنكته \*

لقد بدأ متقمصا شخصية من تلك الشخصيات ، التى  
وردت فى حكايات الكتاب المقدس ، التى استوعبتها منذ  
مرحلة الطفولة الباكرة والتى بدأت تتراخى فى رأسى منذ  
دخلت الأرض المقدسة عن ممثلى سلالة الأنبياء وحكام العصور  
الأبوية ، أو الرجال الحكماء الذين أتوا بعد ذلك ليقدّموا  
أعطياتهم للطفل المسيح وهو فى المهد - لا بد أنهم كانوا  
يبدون كالشيخ على وهو واقف أمامنا الآن بشحمه ولحمه \*  
انه مثلهم ، فكأننى أراهم فى شخصه قدّموا من عمق آلاف  
السنين \* انه مثلهم دون اختلاف \*

ومرة أخرى فقد تأثرت بثبات الحياة ( عدم حدوث  
تغيير فى شكلها وأساليبها ) فى هذه المناطق ، فالمدن لم تلغ  
الخيام وأطفال الصحراء هؤلاء لم يأخذوا بأساليب الحضارة  
بدعوى التقدم ، فلازالوا يتحركون فوق السهوب وبين  
الجبال بحرية لا يسيطر عليهم أحد \* ولازال زعمائهم  
يفخرون بثروتهم من القطعان ، وقدرتهم العسكرية ممثلة فى  
آلاف من المقاتلين الشجعان على خيول سريعة \* ولا يجد  
المنطقة التى يتحركون فيها حدود فهم يضربون خيامهم فى  
أية بقعة يتوفر فيها العشب \*

لقد كنت سعيدا أن أرى هذا الملك الجليل ( بطريقته  
الخاصة ) وكنت شاكرا لأننى فهمت أثناء هذا اللقاء أن  
السلطات التركية قد وضعتنا تحت حمايته ، وبذلك هيات



لنا صداقة ضرورية . فهذه الحماية كان لابد منها لرجلة وراء نهر الأردن ، لأن هذا النهر يشكل حداً فيلما من هذا النهر حتى بغداد يعد منطقة حرة للقبائل التي لا يحكمها قانون ، فهم لا يعترفون بأى خليفة إذ يحسون انهم اقرب الى مكة ( المكربة ) منهم الى مقر آل عثمان ، ولا أحد يجزئ على أن يشق طريقه بقوة السلاح بين هذه السهوب والصحاري حيث لا يمكن أن يوجد الا البدو الحقيقيون . والمنطقة التي يحكمها الأتراك تصل لنهر الأردن ، ولكن الحاميات العسكرية في فلسطين ضعيفة ولا توجد الا في المدن الكبيرة ، وكما يقال بالفعل فان كثيرا من البدو الفقراء - ولكنهم شجعان رغم فقرهم - يغزون التلال الحدودية ، كما أن علاقتهم بالحكومة ( العثمانية ) غير جيدة ، ومن هنا فان منطقة الأردن تتعرض دائما لهجمات القبائل البدوية الكبيرة القادمة من الضفة اليسرى للنهر ، وقد سجل التاريخ - حتى في هذا القرن التاسع عشر - كثيرا من غاراتهم المأساوية للسلب والنهب .

فسرية الخيالة التي تحرس قافلتنا لا يمكن أن تساعدنا الا مساعدة قليلة ، وحتى هذا يتوقف على أوامر السلطات أو تهديداتها لها ، اذا ما سبح هؤلاء البدو والنشيطون حاملو الرماح عابرين النهر بال مئات في ليلة ملائمة وأحاطوا بنا ، لهذا فانا ممتنون للبasha الذي عهد بنا وبخط سير رحلتنا لهذا الشيخ المسن ووضعنا تحت حمايته .

وقد أحس الملك البدوى - فهو حساس ككل الشرقيين - بهذا الاجراء والمعاملة الكريمة ( التي أولته بها السلطات ) وأتى بنفسه من مسافة بعيدة ( لأنه يقضى معظم وقته بعيدا ) فصحب مجموعة من الفرسان الرائعين الى ضفاف الأردن وعبر النهر سباحة وانتظرنا بجوار خيامنا .

وباختصار ، أكد لنا بكلمات تنم عن القوة والاخلاص أنه يمكننا أن نمر بأمان على طول مجرى الأردن كله . وأن

كل ما نحتاجه من مساعدة في الصيد سيكون متاحا لنا ، وفي الحقيقة فأننا كنا نجد في كل موضع نتوقف فيه ألفة مع السكان المحليين ، الذين أتاحوا لنا صيدا ممتعا وخدمونا بلا كلل . فعندما يعد الشيخ على أحدا بالأمان فإنه يكون في هذه المناطق - أكثر أمنا - مما لو كان في وسط أوروبا ، فكلمة الشيخ على بمثالية قانون بين كل القبائل البدوية التي لا تخضع لقانون . وفيما مضى لم تكن الحال كذلك ، لأن البدو كانوا في حالة اقتتال دائم ، لا يكفون عن حرب بعضهم بعضهم الآخر ، فإذا حدث أن صادق أحد المسافرين قبيلة ، كان عرضة لاعتداء القبائل الأخرى عليه .

لقد وجد هذا الأب الحكيم الآن معظم القبائل تحت حكمه ، ويطيعه سكان المنطقة البدو طاعة عمياء لا تحدها حدود تقريبا . ان آلافا من الفرسان والمسلحين الشجعان من أبناء الصحراء يتفقدون أوامره ، ومن ثم يمكننا القول ان نوعا من الخلافة قد ظهر . واستأذنتنا الشيخ على في الانصراف بعد حوار قصير . ان الوقار سمة من سمات تصرف هؤلاء البشر ، كما أن لديهم احساسا قويا بالعزة والفخار قلما يلقاه المرء بهذه الدرجة نفسها في أوروبا . لقد ركبوا خيولهم النبيلة تحيط بهم مجموعة من حملة الرماح المخلصين وعاد الملك البدوي الى سهوبه التي لا تحدها حدود .

وكان ينتظرنا عند الخيام أيضا حاكم نابلس وهو رجل تركماني أصيل ويحظى بالقبول كما أنه متحضر جدا ، وكان راغبا تماما في تحقيق رغباتنا . وكان يرتدى زى باشا لكنه بسط فوق طربوشه غطاء أبيض بسبب الحرارة .

وتناولنا افطارا سريعا فلم يكن لأي منا رغبة في أن يأكل كثيرا ، فالهواء ثقيل ويبعث على الاختناق خاصة وقد اقتربت الظهيرة ، وقتل فينا العطش الدائم والحاجة الدائمة للماء كل شهية في هذه المنطقة المنخفضة الواقعة تحت مستوى

سطح البحر . وبعد أن استرحنا ساعة قام بعض رفاق السفر  
ليشغلوا وقتهم بعد الظهر وفي المساء بمطاردة الطرائد .

وكان على سالم - قائد جماعة البندو المساعدين في  
الصيد - أن يوجهنا الى بقعة غنية بالطرائد . لقد كان سالم  
قديرا وتابعا ممتازا سرعان ما ارتبطت به وقدرته كرياضى .  
لقد ولد على ظهر حصان سواء أكان حصان صيد أم حصان  
حرب ، ويمكن اعتباره نموذجا للعربي الحر ( البدوى ) بكل  
ما فى الكلمة من معنى . لقد كان صغير الحجم لكنه عصبى  
ويتميز بملامح مفعمة بالطاقة ولعية قصيرة وعينى صقر .  
وبشرته داكنة اذا قورنت ببشرة أهل هذه المنطقة ، فهو فى  
لونه أقرب الى لون العرب الأفريقيين ، أما لباسه فيتكون من  
عمامة صغيرة وثوب أبيض فوقه حزام محكم ، وحذاء أصفر  
تبدو من فوقه ساقاه النحيلتان ويحمل سكيناً صغيرة فى  
جراب يخرجها منه ويمسكها بيده ، وكان رفاقه حوالى  
خمسین . وكانوا طوالاً ضامرين معظمهم ملتخ ، وبشراتهم  
بنية داكنة مشربة بصفرة ، ويلبسون عباءات رثة ويضعون  
فوق رموسهم العمامم وبعضهم يرتدى ملابس بيضاء وبعضهم  
الأخر ملابس بنية منقطعة بخطوط بيضاء ، وهم مسلحون  
ببنادق قديمة ومسدسات عتيقة وسكاكين قصار ، وغضى أو  
أسواط ( كراييج ) للتلويح بها مهددين . لقد كانوا أتباعا  
مخلصين طيبين يجيدون مطاردة الطرائد . وتبعنا الكلاب -  
وهى كلاب لا سلالة لها ولا جنس ، لكننا تعلمنا كيف نقدر  
بعض البدو ذوى الشعور المجددة والبشرات الداكنة ، بشكل  
غير عادى ، مما يشير بشكل واضح الى تأثير الدماء الزنجية  
فيهم .

وغادرنا المعسكر مع هذه المجموعة . لقد كان أماننا  
مسير طویل ، فقد كان الركوب غير ممكن لأن خيولنا كانت  
فى راحة منذ شروق الشمس ، لأننا كنا نود أن تكون قوية  
وبصحة جيدة فستبذل جهدا فى الأيام التالية . وأرشدنا

سالم فى البداىة بىن ما ىسمى غاباى ، وهى اكثرى من كوئها  
مروجا خضراء مزهرة حقا وحقول شعىر ( شوفان ) برى ،  
وتغطىها على نحو أو آخر أدغال وشجىرات قزمية • ان كل  
شئ فى وادى الأردن شائك ، فالحشائش الطويلة تكون لها  
فى الربىع أشواك طويلة تنغرس فى جسم الانسان والحووان ،  
وكل الأشجار لها أشواك • وىمكن تصور مدى الضرر الذى  
ىحق بالملابس والجلد ، والمعاناة القاسية الحقیقیة التى  
ىتكبدها المسافر المحب للرىاضة ( الصىد ) فى هذه المناطق  
والتى ىتحتم علیه التأقلم معها •

لقد كانت ثمة أنواع كثیرة من الطیور تحدث حركة فى  
الأشجار ، ففى مثل هذه البقعة تتجمع الطیور والحووانات  
معا ، ومن هنا ىمكن رؤىة نماذج جمیلة - وبالنسبة لنا  
جديدة أىضا • لقد كان هدىل الحمام الآسیوى الأصیل ىسمع  
فى كل مكان ، وثمره قمرىشان ( بضم القاف وتسكىن المیم )  
واهنتان طارئا عالىا فى الهواء ، وراحت طیور الصرد  
( الدغناش ) (\*) وطیور أخرى كثیرة تفرد بىن الأدغال  
الكثیفة ، بىنما تظهر طیور السمان الكبىرة - فى كل خطوة  
نخطوها - من الشعىر ( الشوفان ) البرى ، وتوجد الطیور  
الجارحة أىضا بكثرة : نسور وصقور وحدهات • والحووانات  
الأصغر حجما متسوقة أىضا : السحالى النحیلة والضفادع  
السمینة ، أما الحشرات الكبىر منها والصغىر فتجعل المكان  
خطرا •

وبعد فترة غادرنا هذا البستان ووصلنا للسهب : لقد  
كانت الحشائش الصفراء تغطى الأرض فذكرتنى ببسلادى  
وبالمستنقعات المبریة ، وثمره مالا ىحصى من الجنادب ( الجراد  
الصغىر ) تسقسق تحت أقدامنا ولم نستطع أن نفهم كىف

---

(\*) تسمى أىضا طیور النمس بضم النون وتشدها وتسكىن الهاء - ( المترجم ) •

توجد هذه الكائنات فى آسيا فى اوقات معينة ، بشكل وبائى .

وفجأة توقف سالم واعلن اننا قد وصلنا لهدفنا ، لقد كان المسيل يهبط من الجبل ، مزهرا عامرا بالزروع - فى خط مباشر خلال سهل الأردن - وكان يمتد امامنا مباشرة بيننا وبين جرف طفلى . لقد كان تركيب هذا المجرى المائى شائقا وعلى جانبى المسيل بعض المهاوى العريقة التى يبلغ عمق بعضها عدة قامات ( فاذومات ) ، وهى تمثل عقبات قاسية . وفى الوسط يجرى الغدير ( الجدول ) ، وفى هذا الوقت من السنة كان مجرد غدير صغير ضيق تحفه صخور مختلفة ومواضع مستنقعية سبخة ، وأشجار وشجيرات كثيفة لا يمكن اختراقها وجدوع منهارة وطفل وبقايا مختلفة أنواعها - انها بمثابة غابة صغيرة بدائية فى مكان ضيق . وفى أكثر المواضع عرضا ، فان المسافة بين جانبى الغدير لا تزيد عن مائتى خطوة .

لقد وجهنا بعض بنادقنا الآن ذات اليمين ، وبعضها الآخر ذات الشمال أو الى الناحية العلوية للجانب الطفلى للغدير ، بينما كان على البدو مع كلابهم أن يحتفظوا بالمستوى نفسه وأن يثيروا الطرائد بين الأشجار والصخور فى خط مستقيم . وقد بقى سالم الى جوارى وكان يوجه عملية المطاردة كلها .

وراح مشرو الطرائد بين صياح ورشق بالحجارة يقفزون هنا وهناك حول الغدير ، وزغردت الطلقات فقد راح طير فى اثر الآخر يحلق خارجا من مكمنه ليسقط مرة أخرى فى الدغل . لقد خرجت من أوكارها طيور الحجل الصخرية ذوات السوق الحمراء وطيور السماء وطيور مغردة أخرى مختلف أنواعها . وكان لطيور الشرقرق rollers والسوروار bee-eaters أوكار فى جوانب الغدير المشققة ، ووجدنا فى المواضع المستنقعية آثار خنزير برى وحيوان الشيهم.

ر) بتشديد الشين وفتحها وتسكين الياء = حيوان شائك من القوارض ويسمى أيضا النيص - بتشديد النون وفتحها ) ، ووجدنا آشواك هذا الحيوان الأخير وجعره • ولسوء الحظ فإن هذا الحيوان النجسول قد زحف تحت الأرض دون أن يحدث صوتا لذا ، فمن النادر أن يتم اصطلياده بالنهار •

ورحنا نطلق النار لبعض الوقت ومسحنا مساحة لا بأس بها من جانب الغدير ، وفي هذه الأثناء ، حدث - فجأة - أن راحت الكلاب تنبح عند أكثر مواضع الدغل كثافة • لقد كنت ابحث عن طائر من طيور العجل ، وكنت لهذا السبب ، ولحسن حظي في بطن الوادي • وفي هذه اللحظة أتت طلقة من الجانب الآخر للغدير وهتف بي أحد الرفاق أن حيوان الأرماديلو ( المدرع ) قد أفلت للتو من مطاردة الكلاب ، فطاردت مع البدو هذا الحيوان بسرعة شديدة ، وفجأة توقفت الجميع ، فقد ووجدنا إلى جوار شجرة بزجا يشبه القندس ( السمور ) يبلغ ارتفاعه عدة أقدام ملتفا حول الساق ، وقد خرجت أطرافه من بين الفروع • لا أحد يستطيع أن يصف البناء المعماري لهذا الحيوان العجيب • ومن الجانبين كان هناك مدخلان دائريان ، وعندما رأى البدو هذه المنشأة انسحبوا للخلف بحذر •

**وقد جعلنى سالم أقف الى جانب أحد المدخلين ، بينما وجه أتباعه الى اشمال النار عند المدخل الآخر ، وبينما النار تسعل بدا المبنى يطلقطق - انه مخلوق خاص يشبه الثنين على نحو ما ، ولونه يرتقالي ، ويزيد طوله بالتاكيد على أربعة اقدم ، وبدأ هذا المخلوق يزحف بحذر خارجا ، وكان يصدد العدو عندما أنهت طلقة - تعرف طريقها - حياته •**

لقد كانت غنيمتى الشائقة هي عظاءة ( سحلية ) • اننى لا أعرف كثيرا عن عالم الزواحف لكن فى حدود علمى ، فإن هذا المخلوق كان « ورل » Varan Lizard • وكان هدفنا التالى هو ارسال هذا النموذج النادر الى المعسكر دون أن

يلحق بدنه تشويه ، ولأن العرب رفضوا بإصرار أن يلمسوا هذا الجسد البارد بأيديهم ، فقد كان علينا أن نشيد نعشا صغيرا من فروع الأشجار لوضع الحيوان الميت فيه ، وارسال أحد البدو برفقته • وواصلنا رياضتنا لكننا سرعان ما لاحظنا أن الطيور قد أصابها الذعر ، لكثرة ما أطلقنا من طلقات ، ورأينا أن هذا الوقت غير ملائم لصيد الخنازير البرية • فعمدت مجموعة إطلاق النار كلها لبقعة ظليلة تحت شجرة كبيرة ، ولأن الحرارة قد أنهكتنا فقد انطرحنا فوق العشب ، وحتى البدو فعلوا ذلك ، بينما كانت كلابهم القوية تلهث طلبا للماء ، وقد تبدلت ألسنتها • ولم يكن فى الغدير ماء كثير ، ولم يكن هذا القليل صافيا بما فيه الكفاية ، لكن أحمد Achmed الرائع كان لبّيه - كما هى العادة - بعض زجاجات شراب الليمون كان يحملها فى حقيبة فوق ظهره •

وبعد أن استرحنا لنصف ساعة ، دعانا سالم لمواصلة الصيد ، ورأى الدوق الكبير وهويوز Hoyos وايشيتباخر Eschenbacher وراث Rath أن يهودوا أدراجهم الى المعسكر ، وأن يمارسوا الصيد وهم فى طريق العودة • أما أنا وكورنسكى Chorinsky فقد كنا تواقين للعمل فتبعنا البدو الى السهوب • وبعد مسير طويل وصلنا لدغل صغير منخفض ، تليه أرض سبخة وكتلة من البوص ( القاب ) تمتد بضع مئات من الخطوات

وأوقفنا سالم عند أحد الجوانب ، وجعل مثيرى الطرائد فى الجانب الآخر • ان أية طريدة تغادر هذا الدغل يتحتم إطلاق النار عليها بمجرد ظهورها • انه كمين محكم • وكان أحمد Achmed تابعا يستحق التقدير ، لكنه لم يكن يحب إطلاق النار على الحيوانات البرية ، وبمجرد أن فهم ما سيكون استاذننى أن أسمح له أن يستريح خلف بعض الشجيرات بعيدا قليلا ، واختفى قبل أن يسمع اجابتي •

ووقفت بالقرب من مرتفع واضح استعدادا لصيد  
خنزير برى قوى ، واقتحمت الكلاب بعنف هذا الدغل من  
البوص ( الغاب ) وبدأت المطاردة ، وتتابع أصوات  
المطاردة والنباح بسرعة ، واختلط نباح الكلاب بصيحات  
مثيرى الطرائد \* وكانت صيحات مسعورة \* وأخيرا بعد ربع  
ساعة مثيرة ، اندفع من الدغل خنزير برى ضخم واتجه بسرعة  
نحو الموضع الذى أقف فيه ، وأطلقت النار عليه فأصابت  
بجرح غائر تحت الكتف فسقط ، لكنه عاود الوقوف وهو  
يرغى ويزبد من الغضب وواصل طريقه ، ووقف أحمد  
Achmed اليابس بالاضبط - معترضا طريق الخنزير ،  
لأنه لم يكن يدرى قدرة هذا الخنزير على الجرى ( بعد  
إصابته ) ، واندفع الحيوان الجريح وحاصر - بهياج  
مسعور - الرجل اليائس ، ولحسن الحظ فقد كنت أجري  
متابعا الحيوان بأقصى سرعة فوجدت أحمد وقد قبض على  
سكينة مستعدا للضرب بها ، وراح يصرخ بصوت عال وقد  
وقف على رجل واحدة ورفع الأخرى فى وجه الحيوان  
الناضب الذى تهيأ لانقضاض حاسم لكنه سقط طريق الأرض  
قبل أن يصل لبطننا ، ذلك لأننى تحققت النظر المساجق  
فأطلقت النار عليه ، وكانت ضربة قدرية مسددة فقد  
أوردته موارد التهلكة .

لقد كان الحيوان القليل أنثى خنزير قوية تبلغ من  
العمر عامين ، وقد أصابتها الطلقة بينما كانت فنطيستها قد  
لامست بالفعل سروال أحمد الواسع . والآن ، لقد انطرح  
الخنزير البرى بسلام الى جانب المصرى ، وكان أحمد قد  
أخضر لونه لشدة الرعب وكانت كل أعضائه ترتعش ، ولم  
يستطع استعادة قدرته على الكلام الا بعد عدة دقائق .  
وسرعان ما وصل البدو لمسرح العملية وغيونهم تلمع ببهجة .

وكان هذا الخنزير يشبه خنازيرنا تماما خاصة  
الخنازير الضخام فى الغابات المجرية - لكنه مختلف تماما عن  
خنازير الشمال الأفريقى ، فهذه الأخيرة أصغر حجما بكثير ،



وتكوينها أكثر دقة ، ولونها أكثر سوادا وكأنها مطلية  
بالزفت . ونزع مساعد الصيد التابع لى أحشاء الخنزير  
بسرعة وطرحه العرب على مجموعة أخشاب مربوطة معا ،  
وحمل أربعة رجال هذا الحمل الثقيل الى معسكرنا .

وضاع أرنب برى من كورنسكى Chorinsky وتغلغل  
فى الدغل - انه أرنب صحراوي صغير أصفر ، كنا قد ألقناه  
كثيرا فى أفريقيا . لقد أصبح السير فى السهوب فى هذه  
الشمس الحارقة لا يبعث على السرور كثيرا . وعندما غربت  
الشمس مخلقة وراءها شفقاً أحمر خلف حدود التلال ، وصلنا  
لهذه الأدغال وواصلنا مسيرنا قرابة ساعة . وكانت طيور  
السمان تقابلنا فى كل خطوة نخطوها ، لكن الأرهاق كان قد  
بلغ منا مبلغاً شديدا فلم نعد نفكر الا فى الوصول للمعسكر .  
وقد جعل غدير ماء صاف ، يجرى بمرح ويرشش الماء -  
جعل مسيرنا متعشا ، فواصلنا مسيرنا وقد هبط الليل تماما ،  
ورأينا بعض النيران تضىء بين الأدغال . لقد كانت هذه  
النيران فى معسكر البدو المعينين لمرافقتنا . لقد بدا هؤلاء  
البدو كالأشباح بقاماتهم الطويلة وعباءاتهم البيضاء الكاسية  
وقد انعكس عليهم لون أحمر من جرام الجمرات والنيران .  
وكانت الرماح الطويلة تشمخ عاليا ، بينما انبعثت من  
الحناجر المربية الفليضة أغان غير مفرحة راح صداها يتردد  
خلال الليل . كانت الخيول ناعمة مستريحة فوق الحشائش  
بينما جرت الكلاب نابعة لمقابلتنا . ومررت أنا وكورنسكى  
بين هؤلاء البدو أبناء الصحراء ، فحيونا بشكل ودود وراحوا  
يقدمون لنا المشروبات الباردة طوال مرورنا بهم ، وبعد ربع  
ساعة أخرى وصلنا للدروز النشيطين - خدم هواره -  
والبغال ، والى جوار الخدم الدروز والبغال عسكر الخيالة  
الترك . وما هى الا مائة خطوة ووصلنا لخيامنا .

وبعد الغروب زادت الحرارة شدة ، وكانت تزداد كلما  
أوغل الليل ففرقنا جميعا فى المرق وعانى بعض الرفاق  
والخدم معاناة شديدة من هذا الجو الخانق ، وركود الهواء

ركودا غير مألوف - ورغم التجارب العميقة التي صادفناها  
أثناء النهار والنجاحات التي حققناها في مضمار الصيد ، إلا  
أن شعورا بالاحباط النفسي والروحي بدا وكأنه يسود بين  
مجموعة الرحلة ، بل وازداد هذا الشعور في الأيام التالية -  
أن جو وادي الأردن جو يترك تأثيرا محزنا كثيبا على كل  
الأوربيين \*

وفي بكور اليوم السادس من الشهر قررنا أن نقسم  
أنفسنا الى مجموعات لممارسة رياضة الصيد ، فذهب عدد من  
الرفاق في الاتجاه الذي كنا فيه بالأمس ، أما الدوق الكبير  
وأنا فقد صحبنا سالم وجماعته ، فركبنا مخترقين أراضي  
البساتين الرائعة نحو أريحا ، وبالقرب من هذا المكان يهبط  
غدير من التلال ليعبر سهل الأردن - ومرة أخرى كان علينا  
أن نفوص في الشواطئ الطفلية وأن نتحرك عبر الكتل  
الصخرية ورذاذ الماء ، وبين أشجار نامية تحت أشجار كبيرة ،  
كانت كثافتها أشد من كثافة الدغل الذي كنا عنده قبل ذلك  
حول الغدير - وبقي الدوق الكبير عند الجانب الأيسر بينما  
تسلقت أنا نحو اليمين ، واندفع البدو بين الأشجار الكثيفة ،  
وبدأت مطاردة سعيدة ، فما هي إلا دقائق قليلة إلا وكنا قد  
أطلقنا بنادقنا على طيور مختلفة ، لكننا سرعان ما تركنا هذه  
الطرائد الصغيرة ، لأن البدو قد وقعوا على آثار حديثة  
للخنازير البرية \*

وسرعان ما ظهر التحدي على الكلاب ، فقد ظهر خنزير  
برى بين الدغل ، لكن ظهوره كان للحظة فلم يكن من الممكن  
اصابته ، وسرعان ما ظهر خنزير آخر عقب الأول يقفز  
كالأرنب البري أمام مثيري الطرائد بين الحشائش ، فآلقه  
الدوق الكبير طلقة فهوى - وتم سحب الحيوان - وهو أنثى  
خنزير تبلغ من العمر عامين - من الغدير ، وأرسلناه معمولا  
على ظهر حمار الى المعسكر - وهربت منا خنازير برية مختلفة  
بين الأشجار اما عادت من حيث أتت أو واصلت اندفاعها ،  
وقد أفلتت خنزير من الدوق الكبير في وسط الغدير \*

وسرعان ما نبتحت الكلاب مرة أخرى، فقد تسبق خنزير جميل fine له أنياب طويلة بيضاء متألقة - المنحدر الكائن بينى وبين مثيرى الطرائد ، وهو يتعثر ويندفع محدثا جلبة ، قاصدا الهروب الى السهوب فألقمته طلقة تحت كتفه فتمدد ، وبلغت بي السعادة منتهاها وأنا أبعث بصيدى السمين للمعسكر . ثم عاودنا التركيز على صييد الطيور العديدة . طيور حجل الصخور الجمراء والأرجوانية وطيور مالك الحزين ( البلشون ) ، بالإضافة لطيور السماء وطيور الشنقب ( ويسمى أيضا الجهلول أو البكاسين ) لكن النسور كانت بعيدة فلم نصطد منها شيئا .

ولما كانت حرارة منتصف النهار قد أصبحت شديدة ، فقد رأينا أن نوقف الصيد لفترة ، فهبطنا للمدير ، فوجدنا فى الطفل آثار الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى وآثار حيوانات الوشق ( بفتح الواو والشين ) وأخرى لقطط أصغر حجما . ووفقا لما ذكره البدو ، فإن الحيوانات الكلبية ( الشبيهة بالكلب ) تهبط من التلال ليلا فقط بحثا عن المياه ، حيث تكون حيوانات العائلة القططية ( الشبيهة بالقطط ) قاطنة فى الدغل قريبة فى متناول اليد ، وان كانت - حتى الكلاب - لا تستطيع اخراجها من مكانها .

لقد كانت آثار الشيهم ( بتشديد الشين وفتحها - ويسمى أيضا النيص بتشديد التون وفتحها ) ظاهرة متتابة أيضا ، وتابعتنا الكلاب التى جرت للجحر ، فوجدنا بعض أشواك هذا الحيوان الفضولى وآثارا حديثة له فقررنا اخراجه من جحره العميق ، فأرسل مساعد الصيد التابع لى للمعسكر لاحتضار كلاب الدشهند وبعض الجواريف ، وفى انتظار عودة الرسول جلس مساعد الصيد تحت شجرة ليشرىوا عصير الليمون وليدخنوا السجائر . وكان الدوق الكبير قد اصطاد خلال هذا الصباح حيوانا نادرا للغاية وهو جربوع ( يربوع ) Jerban يشبه الكنجارو .

وحالما وصلب كلاب الدهند وجهناها للجحر ، وسرعان  
ما سمعنا نباحا وأصوات تشابك ، لكن للأسف فهذه الكلاب  
رغم أنها شجاعة فى المعادة - سرعان ما خرجت من الجحر  
وقد وضعت ذيولها بين أفخاذها خوفا ورعبا ، ولم ترغب فى  
دخول الجحر مرة أخرى ، فطلبنا من البدو أن يحفروا -  
وشرعوا فى ذلك فعلا لكن ببطء فقد كانت الشمس حارقة ،  
كما أن طباعهم تميل للحركة والصيد فى الهواء الطلق ، أكثر  
من ميلهم للعمل الشاق .

وشعرنا أن محاولتنا كانت بلا طائل فقررنا التوقف .  
لكن فى الوقت نفسه اكتشفنا أثرا مقدسا شائقا . لقد  
اكتشفنا فى مدخل الجحر كتاب التراتيل البروتستنتى ،  
ربما حملة هنا بعض حيوانات الجحور وفقا لعادة تشير من  
الحيوانات التى تحفر مساكنها .

وكان فى الكتاب - على أية حال - تراتيل وصلوات  
انجيلية ( بروتستنتية ) أصيلة ، ودعوات للأمبراطور  
وليم . وبشكل عام كان المجلد بحالة جيدة من الداخل والخارج  
الا أن على أوراقه بعض بقع دماء . أن الله وحده هو الذى  
يعلم كيف وصل هذا الكتاب الأوربى لهذا الموضع الموحش  
وكيف فقد صاحبه ، ربما كانت مظامه قد تعطلت فى مكان  
قريب فى هذا الدغل الكثيف .

وركبنا خيولنا وعدنا لمسكرنا . كان سالم يسير فى  
المقدمة وكان فرسه يعدو عدوا غير سريع . وكان سالم  
يمتطى حصانه الصغير الأحمر الكستنائى المشوب ببياض -  
بدون سرج ، ويوجه حيوانه للعب هذا برسن واحد يسحب  
من جانب واحد .

وبالقرب من أريحا لاحظت تسرا يفتسل في الغدير  
فقفزت اليه مستترا بالشاطيء النباتي ، وفي غضون دقائق  
قلائل استقر الطائر الباهر في حقيبتى .

وقد أطلق الرفاق الآخرون ينادقهم فاصطادوا عددا  
لا بأس به من الطيور الصغيرة ، وأقمنا معرضا منظما لما  
اصطيدناه عندما وصلنا جميعا للمعسكر . وبعد ذلك تناولنا  
افطارنا ، وكان مما لا يبعث على السعادة أننا قضينا معظم  
السوقت في ذب الذباب أكثر مما قضيناه في الأكل ، ومن  
الصعب أن أصف حشود الحشرات التي كانت تهاجم طعامنا .  
لقد قضينا أكثر الساعات حرارة في المعسكر نتلمس الراحة ،  
فقد سببت لنا الحرارة المزعجة - للأسف - عذابا مستمرا ،  
وكان من الصعب على المرء أن يجمع أفكاره ليكتب ملاحظات  
مختصرة أو يكتب بعض الخطابات . لقد كنا نستمتع يوميا  
في وادي الأردن في فترة الظهيرة بدرجة حرارة مقبولة هي  
١٢٢" فهرنهيت .

وفي حوالي الساعة الخامسة عصرا خرجت مرة أخرى  
مصحوبا هذه المرة بسالم وحده وبعض البدو . وفي البداية  
أطلقت بندقيتى على بعض الحمام الهائل فوق الأشجار ، ثم  
تجولنا عبر بعض حقول الشعير القديمة ، فاصطدت عددا  
كبيرا من السمان لا يداعها في صندوق حفظ اللحوم ، وكان  
هذا ضروريا ، لأن مخزوننا من اللحم كان قد بدأ ينتن  
شيئا ما ، وانبعثت الرائحة الكريهة من اللحوم المحفوظة  
لتملا المعسكر . ورحت أمشى الهوينى بالقرب من الأدغال  
والبساتين فلاحظت الغطاء النباتي الباهر للمنطقة ، لقد  
لاحظت على نحو خاص أشجار الضال Zizyphus Lotus (\*)  
وأشجار العناب Spini-Christi التي يصنع من ثمارها

(\*) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : نوع شامدناه بريا في الغور  
وفي الحولة على مقربة من باتياس - ( المترجم ) .

العناب المعروف الذى يحبه الأوربيون \* ويستخدمونه كعلاج  
لللكحة ، وكذلك أشجار اليلسم *Solanum Sanctum* \* أما الورود  
فلم أجد الا ورود أريحا الشهيرة ، وهذه الورود موجودة  
أيضا - بشكل نادر - على ساحل البحر الميت \* وعتد الغروب  
عدت للمعسكر فتناولت عشاءى وخلدت للراحة .

وفى صباح اليوم التالى جمعت النيام وحدثت الجليلة  
المصاحبة لهذا العمل وعم الصباح ، وبدأت قافلتنا فى  
التحرك ، وتبعناها بعد تناولنا الافطار مباشرة يدلنا  
بدوى برمح طويل وعباءة واسعة يداعبها الهواء ، وكان  
يركب حصانا كستنائيا جميلا . ويمكن اعتبار هذا الرجل  
نموذجا للعربى الأصيل ، وقد استغنى الباشا عن خدمات  
الشيخ الذى كان حتى الآن يعمل كمرشد ، لأسباب لا أعرفها ،  
وفى البداية ركبنا عند سفوح التلال الحديدية عند حافة  
الأراضى الخضراء ومررنا بين شجيرات كثيفة وتحت أشجار  
منخفضة كانت - بلا مبالغة - مغطاة بطيور اللقلق التى  
استيقظت من سباتها . وبعد برهة اختفت الأدغال ،  
وتجاوزنا أرض البساتين الطبيعية فى منطقة عين السلطان ،  
ومرة أخرى استقبلتنا السهوب .

كانت الأرض - بشكل عام - ملائمة للخيول وكان يمكن  
للمرء غالبا أن يجرى بخصانه خبيا ، الا أنه بين الحين والحين  
كانت تعترضنا مواضع صخرية ، ومجار مائية بالقرب من  
الجبال - كان علينا اجتيازها . وبعد ساعتين من الركوب  
انفتح الوادى الجبلى العريض شيئا ما - عن يسارنا ، وفى  
داخل هذا الوادى عند آخر نهايته يوجد ينبوع العسوجة  
*ElAudje* وهو ينبوع ينصب التربة ، ويحافظ على  
ما بها من خصوبة بالفعل ، انه يفيض خلال الوادى ومن ثم  
عبر السهل الى نهر الأردن . وكان علينا أن نعبّر أدغالا  
وأشجارا قصارا مرة أخرى ، وعند الجانب الآخر لهذا  
الشريط الأخضر الضيق ، كان سالم ينتظرنا مع جماعته ،

وكان مشتاقا للمطاردة مستعدا لقيادتنا لأرض عامرة  
بالطرائد .

واستدارت القافلة الكبيرة ومعظم الرقاق الى اليسار في  
الوادي الجانبي الى نبع العوجة ، أما أنا والدوق الكبير  
وهويوز Hoyo فتبعنا البدو . كان عدد مدهش من الطيور  
الجارحة على الأشجار هنا ، وفي غضون دقائق خمس  
اصطدت نسرا من نوع جين الأبيض *Jeans le blanc* ونسرا  
آخر من نوع النسور المتتلة *bottled eagle* . أما هويوز فـ  
اصطاد نسرا منتعلا أيضا ، وامتدت حقول الشعير البري بين  
الشجيرات التي احتشدت فوقها أسراب السمان وكانت تطير  
أمامنا في كل خطوة ، ولما كان لدينا قدر كاف من الذخيرة  
فقد كان نجاحنا رائعا في اصطيد عدد كبير من هذه الطيور .  
وكان طائر الحجل ذو السيقان الحمراء موجودا أيضا ولكن  
بأعداد قليلة ، أما طيور جبل الصخور فلم يكن لها وجود .  
وأدى بنا المسير الطويل شرقا الى توغلنا بعيدا في داخل سهل  
الأردن . وعدنا مرة أخرى لحافة السهوب فاسترحنا في ظل  
شجرة لنصف ساعة ، ثم ركبنا خيولنا يتبعنا البدو سائرين  
على أقدامهم ، وتقدمنا على طول سهل معشوشب مصغر .

وفي غضون حوالي نصف ساعة وصلنا لحافة مجاز عميق  
في الهضبة المرتفعة ، يقع أدنى ( أكثر انخفاضا ) بكثير من  
غدير رقرق ، يجري بين شاطئين مرتفعين من طين بني لونه .  
وكان للمتظر - الذي بدا مفاجئا - تأثير مروع فترجلنا عن  
خيولنا وكان علينا أن نهبط الشاطئ المنحدر بشئدة ،  
وأمرعنا متقدمين خلال الشعب الضيق القريب من الغدير ،  
الذي لم يكن مأواه المالح ليروق لنا - حتى وصلنا لمسيل صغير  
تحيط به من الجانبين جدران طفولية عمودية يبلغ ارتفاعها  
بضع مئات من الأقدام . وكان داخل المسيل مليئا بحشائش  
المستنقعات وبعض الشجيرات القصيرة وبوص ( غاب )  
السبخات والمستنقعات . وكان مخرجه الوحيد ممرا ضيقا  
يرتفع الى الجانب الشرقي للجرف حتى قمة الحيد .

والآن ، فان سالما يدعوننا الى ان نتخذ لأنفسنا موقفا في الجانب المقابل للدغل ، بينما كان عليه هو ورجاله وكلابه ان يثيروا الطرائد في نباتات البردى الطويلة (\*) ولم يمض على وصولنا لمواقعنا وقت طويل ، حتى غادر خنزير برى غطاءه النباتي وسلك الطريق الوحيد للهرب وهو الممر الضيق الصاعد في الجبل وتسلقه برشاقة الظباء ، ولم تصبه طلقات بنادقنا الأربع من البعد ، فجزيت بسرعة لأكون قريبا من هذا الممر الضيق . مازلت بعيدا يحوالي مائتي خطوة على الأقل عندما ظهر خنزير برى آخر يفر متخذ الممر نفسه فأطلقت طلقتين الى بدنه ، لكن أيا منهما لم تورده مسوارده التهلكة . حقا لقد أصيب وراح يجعل برجله الخلفية وجرح نفسه جرا بليئا فوق حيد الجبل .

وصعد مثيرو الطرائد وتحلقوا حولي فحثتهم على ان يتبعوني بحذر لمسافة معينة ، لأنني كنت راغبا في ان أقص أثر الدماء بنفسى . ولما بدأنا وجدت أثرا حديثا لنمر ، وبعد ذلك مباشرة وجدت الخنزير الجريح ، وسرعان ما وصلنا لقمة العيد فتجلى لنا منظر رائع للوادي ، فمض أني لم يكن عريضا الا أنه ثرى بكل أنواع النبات : أدغال ، ومروج وأشجار باسقة ، وفي الناحية الأخرى جروف حادة ترتفع لتحجب الرؤية .

وبتتبع الأثر نفسه أسرعت هابطا لبطن الوادي فلما وصلت ، قادني الأثر عبر مرج بين الشجيرات فوق غدير ينبع من بين الأحجار ومواضع مستنقعية - الى حافة الدغل . وهناك انتظرت وصول رفيقي والبدو ، وواصلت الكلاب متابعة الأثر ، وما هي الا دقائق قليلة حتى سمعت صوت المطاردة والنباح المرح . ان معركة حامية الوطيس تجري .

---

(\*) النسر Sedge والمعنى القاموسي نبات البردى أو السقادي . معجم المورد .  
( المترجم )



فأسرعت خلال الدغل فوصلت لمرج صنفير تحوطه الأشجار  
والشجيرات من كل ناحية ، وكانت تدور في ساحته معركة  
حامية • فقد هجمت الكلاب بشجاعة وراحت تمض عذوها  
وتسعبه ، وكان العدو مازال قادرا على الدفاع عن نفسه بهمة  
وشجاعة • فانتهزت اللحظة المناسبة فأطلقت طلقة صائبة  
على الخنزير القوى ذى الأنياب الجميلة •

وأصبح الوقت متاحا للتطلع حولى • لقد أمكننى أن أرى  
بين الأشجار السامقة والشجيرات ، وأمامى وغير بعيد عنى  
سطح بقعة مياه رقراقة ، وكان يمكننا سماع صوت خريرها ،  
فدعوت رفاقى بسرعة ليستمتعوا معى بالمنظر الجميل •  
شكرا للظروف التى أتاحت ملاحقتى للخنزير البرى ، فقد  
أشبعنا رغباتنا ووصلنا للنهر الذى يعظى بالتقديس - انه  
نهر الأردن الشهير • وأسرعنا لنهبط الأرض المتضربة خلال  
الآجام الى الشاطئ الرملى ، حيث يمكننى أن أعاين مجراه  
والمناطق الجميلة المحيطة به • كان يحف النهر من الجانبين  
مراع خصبة تتخللها أشجار ذوات ظل ظليل وشجيرات  
صنصاف ونباتات مثمرة - وبشكل عام فالغطاء النباتى  
هنا يشبه الغطاء النباتى للمواضع القريبة من المياه فى  
أوربا • والنهر نفسه له صفات المجارى الجبلية الأصلية :  
سريع يرقى ويزيد بين الصخور والأحجار •

ومياه نهر الأردن باردة جدا اذا قورنت بحرارة الجسوق  
الشديدة ، ويعد تبريد الجسم بعناية قبل السباحة فيه مسألة  
ضرورية • وفى غضون نصف ساعة توغلنا حتى منتصف  
مجرى النهر ولم يساعدنا ذلك على الانتعاش فحسب ، وانما  
كان مفاجأة شائقة فى رحلتنا، ومن المفترض أن الاسرائيليين  
عبروا هذا النهر بمعجزة فنجوا • وهنا عاد داود الى مملكته  
مستقلا قاربا مع بارزيلي Barzili ، وهنا شق الياء Eljah  
الموج بعباءته فانفلق -

وفى الأزمنة الأخيرة فان كريستوفر الجان ولد المسيح  
( عليه السلام ) بين هذه المياه نفسها ( مياه نهر الأردن ) ( \* ) ،  
أما ارتباط هذا النهر بالمسيحية نفسها فهو أن يوحنا عميد  
المسيح ( عليه السلام ) هنا ، وكان يوحنا يقطن الصحراء  
ويرتدى وير الجمال ويتقوت بالجراد والعسل البرى ، وقد  
أقبل المسيح الناصرى ( عليه السلام ) ، ليزور يوحنا الرجل  
التقى ، فقام يوحنا بتعميده ، فكان يوحنا أول المؤمنين  
بالمسيحية . وفى هذه المروج — أيضا — سمع صوت الأب :  
« انت ابنى الحبيب الذى به سررت » .

ويأتى المقدسون ( حجاج بيت المقدس ) عاما وراء عام  
فى مواكب ، ليستنحفوا فى نهر الأردن ويحفلوا بعضا من مائه  
وهم عائدون لديارهم . ليعمدوا به أطفالهم ، والأورثوذكس  
يستحمون فى النهر وهم يلبسون العبادة التى أغدوها لتكون  
كفنا لهم .

وبعد أن أنعشنا أنفسنا بالاستحمام فى النهر واسترددنا  
عافيتنا أسرعنا — يتبعنا البدو لنستأنف طريقنا فى اثر آثار  
المنزير البرى ، عبر بطن الوادى ثم صاعدين الى حافة الهضبة  
التي كنا قد هبطنا منها آنفا . وانطلقت الخيول تجرى خبيبا  
فعبنا السهوب من جانب الى آخر بأرشاد سالم . وبالقرب من  
مدخل وادى العوجة الضيق قابلنا المحافظ ( المدير ) وبعض  
الجنود . وكان تأخرنا لفترة طويلة بالاضافة الى أن الاتجاه  
الذى اتخذناه لنهر الأردن قد جعله ( أى المحافظ ) قلقا ،  
فخرج ليثفقدنا ، وكنا قد تجاوزنا الأرض التى بدأنا فيها  
صيدنا صباحا ، وبعد ذلك استدرنا لداخل الوادى الذى  
كسسته خضرة يانعة ، بينما التلال حول جانبيه لا تختلف فى  
طبيعتها عن بقية الجبال الحديدية الأخرى — منحدرات طويلة  
شديدة قلما يغطيها العشب . وكان طريقنا الضيق الذى

( \* ) إشارة الى خرافة يروجها اليهود ضد السيد المسيح عليه السلام — ( المترجم ) .

بدا لا نهاية له ، يمر خلال أدغال كثيفة وشجيرات شائكة ،  
وبين الحين والآخر كانت تتمرضه غدران تحيطها الصخور .  
وكانت طيور اللقلق التي لا يمكن حصرها تقف على  
المنحدرات . لم يسبق لي أن رأيت تجمعات لهذا الطائر بمثل  
هذه الكثافة التي أراها هنا خاصة في وادي العوجة ، ويشكل  
عام في سهل وادي الأردن .

ووصلنا لمعسكرنا - أخيرا - بعد هذا المسير الطويل .  
كانت الخيام منصوبة عند سفح الجبل على حشائش السهوب  
ونباتات الشمير ( النص : الشوفان Oaks ) البري ، لكنها  
قريبة من خضرة وافرة يانعة ، وعلى جانب غدير صغير .  
لقد وصلنا الآن تقريبا إلى رأس الوادي (\*) حيث بركة جميلة  
ذات حواف شديدة الانحدار . وأكلنا أكل جائع لأن الساعة  
الآن الثالثة بعد الظهر ، ولم نكن قد تناولنا طعاما منذ  
الساعة الخامسة صباحا ، بالإضافة إلى أننا أرهقنا أنفسنا  
خلال هذه الفترة .

وقضينا فترة ما بعد الظهر ( من العصر حتى الغروب )  
في المعسكر . إن حياة القافلة في الهواء الطلق وفي الخيام  
في الغاية من الجاذبية ، وتختلف بشكل ملموس عن الحياة  
الأوربية الروتينية . ولسوء الحظ أنه كان في معسكر  
العوجة بعض الأمور المزعجة . فقد نصبت الخيام على موضع  
أرضه ذات أعشاب جافة ، مما يجعلها قابلة للاشتعال ، ولما  
كان الرفاق يلقون بأعقاب سجائرهم بغير اكتراث ، فقد  
تسبب هذا في نشوب حريق استمر دقائق قليلة وأمكن  
إطفاءه بوسائل بسيطة . وكان علينا أن نضاعف من حرصنا  
نظرا لكثرة الدخائر معنا ، ولم يزد هذا الحزن كثيرا عن  
تحديد عدد السجائر التي ندخنها . وأكثر من هذا فإن  
الغدير قد جف بعد وصولنا بقليل ، وكان هذا الغدير

---

(\*) من الواضح أن الوادي منحدر وهو يقعد هنا الجانب العلوي من الوادي -  
( المترجم )

ضروريا لقافلتنا ، ولما سألنا اترضح أنه سئد وتحول عن مجراه ، ولم يقد الخدين كما كان في أى مجراه المار بجانب منسكرنا إلا مساء ، فأنعش البغال والخيول التي كانت تعاني الظما .

وكان لدى الباشا من الأسباب ما يجعله يشك في ان الشيخ البدوى الذى طرد من خدمة القافلة بالأمس ، كان هو المدير لهذا الأذى . وفي المساء خرج عدد من الرفاق في جولة صيد صغيرة . وقد نجحت في اصطلياد طائر حجل احمر الساقين وطائر لقلق كان في طريقه لعشه . آلاف من هذه الطيور الطويلة منساقيرها مرت بمنسكرنا ، وحطت فوق الأشجار القصيرة ، لقد كانت كثيرة بقدر ما يتاح لها من مكان تحل فيه فوق الأشجار . وعند الغروب عدنا جميعا لتناول العشاء : وبينما أنا أتهيا للنوم سمعت عواء حيوانات ابن اوى الجائعة بالقرب من الخيام .

وفي بكور الثامن من أبريل جمع الخدم الخيام وتحركت قافلتنا مرة أخرى . وفي البداية كان علينا أن نرجع من حيث أتينا بأن نسلك الطريق المرقق في السوادي الجانبى ، حتى وصلنا الوادى الرئيسى فسارت الأمور على نحو أفضل ، فعدونا بخيولنا على طول السهوب عند سفوح التلال طوال ساعتين ، حتى وصلنا للمنخفض المستنقى . كانت هناك آجام متفرقة ، بالاضافة الى بعض السبخات الممتدة ، وقد ضايقتنا هذه السبخات شيئا ما عند ممارستنا للصيد . وكان سالم وزجاله النشيطون موجودين بالفعل هناك ، لكن لأن دور سالم قد انتهى هنا ، فقد كانت هناك مجموعة أخرى من البدو في انتظارنا على رأسهم شيخ وسيم جدا تتبعه كلاب ضخام كثيرة ، وكان أتباعه يلبسون ملابس كالتى يلبسها رجال سالم وان كان يبدو على شيخهم أنه من طبقة أغنى . وكان حصانه الكستنائى الجيد مغطى بسرج

وأعطية ثمينة مزركشة ، وكان كساح الشيخ جميلا وعمامته  
كبيرة ملونة وحداؤه مغربيا جميلا مزركشا ، وكان سيفه  
تركيا معقوفا - كل ذلك يدل على ثرائه وغناه . لقد كان  
منظره - بشكل عام - يحمل طابع رجال قبائل المناطق  
الداخلية في آسيا ، أكثر مما يحمل طابع العرب النخلص .

وقد رافق ثلاثتنا : الدوق الكبير وهويوز وأنا ، بأدب  
ملحوظ - الى مواضعنا في الجانب المقابل للدغل ، وتابع  
باقي الرفاق مع بقية القافلة مسيرهم الى نقاط أبعد .

وملاطنا بعض آثار الخنازين البرية والضباع بالأمل  
لكن سرعان ما خاب أملنا ، فقد كانت الأرض المستنقعية  
واسعة جدا ويصعب العمل بها . ولم يستطع مشيرو الطرائد  
اختراقها والتوغل فيها ، وكل ما استطاعوا عمله هو الجري  
والصياح حول أطرافها . كانت ممارسة الصيد هنا متعينة  
فلم يطل أى حيوان برأسه من مكمنه .

ومن ثم فقد ركبنا خيولنا مرة أخرى ولحقنا بالآخرين  
وعبرنا حيدا ناتئا ذا أرض صخرية ، ومن منحدره الشمالى  
ألقينا نظرة ممتعة على السهل العريض والتلال الخضراء التى  
تحده غربا والجبال الصخرية الشامخة على الضفة الشرقية  
لنهر الأردن .

وكان أمامنا مخرج الوادى ومنطقة عبد القادر الجميلة  
- لقد كان ذلك واضحا أمامنا يمكن رؤيته وهو فى الوقت  
نفسه هدف رحلتنا فى هذا اليوم . ان المرء يرى على مسافة  
طويلة فى هذه السهول ويمكنه أن يصل الى المركز الذى  
يرغب الوصول اليه ، وان كان ذلك ببطء . فالطريق يسير  
عبر السهول لا تعوقه عوائق الى جوار سفوح الجبال .

ولما استدرنا لم نر شيئا سوى طيور اللقلق . لقد كانت  
تترك الخيالة تمر على بعد خطوات قليلة منها دون أن تعيرها  
التفاتا ، وكانت بعض الطيور الجارحة تحلق فى الهواء ،  
وحلق زوج من النسور الآسيوية الضخمة على ارتفاع منخفض

فوق رأسى ، وصوبت بندقيتى بسرعة لكن لم تكن هناك  
طلقة واحدة ، فقد كانت الخزانة فارغة .

الشمس محرقة ، ولم تعد هناك تلك السحب التى كانت  
موجودة فى ساعات الصباح لتخفف من وطأة حرارتها .  
والأسفاه ! . وسرعان ما لحقت بالقوافل . كان منظرها  
يرثى له . فالبغال يتلو بعضها بعضها الآخر ، وبين كل بغل  
والبغل الذى يليه يضع مئاة من الخطوات .

وكانت البغال تجر نفسها جرا ، لفرط ما تحسه من  
ارهاق والم تحت وطأة ضربات سائقيها . لقد كان تأثير  
الحرارة وما عانيناه قبل ذلك فى منطقة لترون *Latrun*  
قبل أن نصل للقدس والحاجة الملحة الآن للماء ، كل ذلك  
ترك تأثيره بشكل واضح ، وكانت كل البغال تنوء بأحمالها  
فانحنت ظهورها ، لثقل ما تحمله من متاع وبدت أرجلها  
وكانها مكسورة .

وبعد أن ركبنا لعدة ساعات ، وصلنا لمدخل وادى  
عبد القادر الذى يتخذ اتجاهها شماليا غربيا بين الجبال  
المرتفعة ، وكما هو المألوف كان ثمة غدير يجرى فى بطنه ،  
وكان لشاطئى الغدير غطاء نباتى وافر وفرة غير معتادة ،  
واستمرت هذه الخضرة تحف الغدير فى هبوطه مخترقا  
السهل حتى نهر الأردن . ولأن الغدير لم يكن يمكن عبوره  
ونحن على ظهور الجياد الا من نقطة واحدة ، فقد كنا  
مضطرين أن نستمر بعيدا داخل الوادى على الشاطئ  
الجنوبى الغدير ، ثم نعود المسافة ذاتها على شاطئ الشمال ،  
وهناك انفتح الوادى ليصبح سهلا كبيرا ، حيث كان معسكرنا  
منصوبا بين مخروط صخرى وبداية الأرض الخضراء .

كان الرفاق قد وصلوا بالفعل ، لكن القوافل كانت  
ما تزال بعيدة لذا ، فقد انتظرنا وصول خيول التحميل  
— بسعادة — فى تجويف صغير هيا لنا ظلا . وقضى بعضنا هذا

أوقت بحثا عن مواضع للاستحمام • كان الغدير معملا عن  
آخرة بالنباتات الريانة (كثيرة العصارة) ، التي يزيد طولها  
عن قامة الرجل وأشجار الدفلى ، التي تغطيها بكثافة زهور  
حمراء ضخام أحجامها ذوات روائح عطرية — وبسبب هذه  
الكثافة النباتية قلما يستطيع المرء الوصول للماء ، وأكثر  
من هذا فإن المنطقة كلها لها المنظر نفسه الذى للمواحل  
الجنوبية للشعابين ، وقد وضعت فى اعتبارى هذه الزواحف  
السامة فى هذه المنطقة ، وفضلت أن أستحم فى غدير فرعى  
ضيق ، بل وقدر الى حد ما بصحبة جعران الطين tords  
والضفادع — بعد أن تفحصت موضع استحمامى جيدا تحسبا  
لوجود زواحف سامة •

ولما عدنا للمجرى الرئيسى للغدير وجدنا خيمة  
ومضجعا قد نصبا فى موضعهما بالفعل ، فتناولنا افطارنا  
فى الحال رغم الحرارة المزعجة ، ورغم أن ذبايا كثيرا كبيرا  
حجمه يدعوا للقرف والغثيان كان لا يكف عن الدوران  
حولنا • وكان على بعض الرفاق أن يتتبعوا الغدير حتى  
مخرجه عند السهل العريض ، بينما كان على انا والدوق  
الكبير أن نندفع داخل الوادى • وبتوجه من سالم والشيوخ  
الآخرين حاولنا أن نثير الطرائد فى الأشجار الكثيفة على  
شاطئ الغدير وشجعنا على ذلك بعض آثار الخنازير البرية •  
لقد كان ما دخلناه بستانا حقيقيا — ثروة هائلة من الزهور  
والشجيرات الريانة والأدغال الملتفة ، كللت هاماتها باللون  
القرمزي لزهور الدفلى • روائح رائعة — أنها روائح الشرق  
العظيم • أنها فردوس كتلك الفراديس الواردة فى ألف ليلة  
وليلة ، لكن لكل شيء اذا ما تم نقصان ، كما هى طبيعة  
الأمور فى العالم كله — فان هذا الفردوس كان عامرا  
بالأشواك ، فرفضت الكلاب العمل ، وفى ظل هذه الظروف  
ليس ثمة مجال للحديث عن ممارسة الصيد ، ففى كل خطوة  
كانت الأشواك تنغرس فى أجسامنا ، فهربنا من هذا  
الفردوس بسرعة الى مواضع أقل كثافة فى غطاءها النباتى •

لقد فاجأتني الكثرة الهائلة للسحالي فاتجة اللون في هذا الفردوس الذي سيب لي ألبا ، ففي كل خطوة كانت الزواحف تقفز بين الحشائش . واستدردنا مطلقين بنادقنا على طيور صغيرة أثناء سيرنا وعدنا للمعسكر مساء . أما الرفاق الآخرون فكانوا أسعد منا حظا ، فقد عادوا بطيرين من طيور الدراج لونهما كلون دجاجات غينيا وحول رقبة الواحد منهما طوق من زغب أحمر . لقد أصبح لدينا الآن نماذج جديدة من عالم الطيور ، وسنتابعها في الأيام التالية ونتعرف عليها بشكل أفضل .

وودعنا هنا سالم ورفاقه وداعا حارا دافئا ، فقد كان على الأتباع المفيدون أن يعودوا لديارهم وبعد أن تناولنا عشاءنا استمتعت بالقاء نظرة رائعة على معسكرنا وما حوله . كانت النيران تلقي ضوءا جميلا على الجروف وعلى الخدم والبدو وهم يروحون ويحيثون . كان أماننا في الغد انجاز كبير لأننا قررنا أن نجتاز مركزين من مراكز التوقف لا مركزا احدا ( قررنا أن نقطع مرحلتين في مرحلة واحدة دون راحة ) .

وقبل شروق الشمس - بل والليل - فعلا - مازال حالكا ، عمت الحركة المعسكر ، فجمعت الخيام وطويت وبدأت القافلة المسير ، وسرعان ما لحقنا بها راكبين خيولنا حول المخروط الصخري فوصلنا الى السهوب . الوادي ضيق عند هذه النقطة . التلال الغربية تتقدم في الوادي ، وكان علينا اجتياز المنحدرات الشديدة والمسيلات العميقة والمواضع الصخرية ، وسعدنا ببعض المناظر الجميلة - عبر وادي الأردن - التي زادت جمالها الغدران الجبلية والممرات الضيقة والتلال الرائعة - على الضفة الأخرى بهيئتها الجميلة وجروفها الكثيرة خضرتها . وكان ثمة برج قديم على أحد تلك الجبال ، ولم أستطع معرفة الفترة التاريخية التي يرجع اليها ولا من بناه في منطقة لا يسكنها الا البدو .



لقد وجدنا وادي الأردن في المنطقة التي نحن فيها الآن ، قد أصبح محدب الشكل والمسار وفقيرا جدا في غطاءه النباتي ، وقد قطعنا هذه المنطقة في الساعات الأولى من النهار ، وكانت أعداد كبيرة من الطيور الجارحة تحلق وكان تحليق أحد النسور الضخمة منخفضا فوق رأسي ، فأطلقت صوته طليقة فهوى مرفرفا بجناحيه بتثاقل بين الخيول .

وكان علينا بعد ذلك أن نصعد أنفا مرهقا ناتئا للجبل ، وعندما وصلنا للحد انكشف أمامنا منظر رائع ، فقد أصبح وادي الأردن اعرض ، إذ أصبح في إمكان المسير أن يرى مساحات أوسع من السهل وحتى المنطقة التلية بجوار بحيرة طبرية Tiberias حيث الجبال الجميل تكوينها عن يمينها وشمالها — وكانت هذه الجبال تحجب عنا رؤية المناظر الى الشمال منها — وقمم جبال لبنان الشامخة وحقول حرمون الثلجية الواسعة — يا له من تناقض ، لقد أرهقنا الحرارة المرعبة التي لم نعان من حرارة مثلها الا في وادي الأردن ، وفي الوقت نفسه كان أمامنا — على البعد — الجليد يتألق في قمة الجبل !!

وتوقفنا — للراحة — في هذه البقعة الطريفة . لقد قررنا أن نركب هابطين الى نهر الأردن ، لقضاء بضع ساعات على شاطئ هذا النهر المقدس — بينما تواصل القافلة طريقها الطويل الشاق ، واعترف لنا البدوي — بعبأته الطويلة التي يحركها الريح ورمحه في يده — بصراحة أنه لا يعرف طريقا مباشرا يهبط بنا الى النهر ، وكان هذا البدوي قد أرشدنا ارشادا جيدا حتى الموضع الذي نحن فيه ، فقدردنا صراخته وانفصلنا عنه لنتلمس أسرع الطرق الى الشرق ، وجرى بي الحصان خبيا قاطعا السهوب ، وكان على أن أتسلق بمشقة لأعبر بعض المسيلات ، ومن ثم وصلت الى بقعة بها عين ماء بين صخور منخفضة وبستان ذي شجيرات رائعة ، فتبعث الغدير الخارج منها على طول شاطئه الصخري المرتفع، فوصلت

الى حافة الهضبة حيث وجدت منحدرًا شديدًا أمامي ، فلما وصلت لآخر المنحدر أدركت أنني في مرج أخضر ومرع خضبة ، وكانت سعادتي فائقة أن نهر الأردن بمجره الفضي كان يجري بين هذه المراعي والمروج ، وكانت في النهر ثنية واضحة في هذه البقعة ، مكونا شبه جزيرة مغطاة بأشجار وشجيرات صغيرة تحت الأشجار الكبيرة ، لقد كان الغطاء النباتي هنا كثيفا ورائعا ، وأكثر كثافة وروعة من أي غطاء نباتي رأيته قبل الآن . وعند حافة هذه الغابة وفي ظل أشجارها وشجيرات المتطرفة غير البعيدة عن المروج والمراعي ، تركنا خيولنا ترعى وتناولنا غداء متواضعا من خبز ولحم بارد ، بعد أن استحممنا في الأمواج المندفعة الباردة . وفي هذا الموضع - كما في أي موضع آخر - احتفظ نهر الأردن بطبيعته كنهر جبلي وراح ينثر الماء على الصخور التي تحفه وبينها ، وبعد هذا الغداء المتقشف قررت أن أتفحص الدغل الكثيف وأن نقوم بإثارة الطرائد لفترة وجيزة .

النصف الأول لشبه الجزيرة مغطى بالشجيرات - الواحدة منها أطول من قامة الرجل بقليل ، والأرض مغطاة بكثافة بنباتات كبيرة أوراقها ، متنوعة أنواعها . وتحيط النباتات المتسلقة بالأشجار فشكل الغطاء النباتي بمختلف عناصره كتلة خضراء كثيفة يصعب اختراقها ، لأن كل خطوة داخل هذا الدغل كانت تحتاج الى أن يستخدم المرم كل قوته .

وبعد أن تعبر الجزء الأول من الدغل بنجاح تصل الى منطقة خالية تقسمه ( أي الدغل ) الى نصفين ، وهنا وجدت في الطفل عددا كبيرا من آثار الحيوانات : آثار نمور وآثار حيوانات الوشق والنمور المتوحشة وخنازير برية وحيوانات الشيهم ( النيص ) ، والدئاب وحيوانات ابن آوى ونوعان من الأيائل . وأثارتنا كثيرا تلك الآثار الشبيهة بآثار الأرناب

وأثار الأيائل السوداء ، وقد وجد هر راث Herr Rath  
— كما قال — فى طريقه المنحدر الى نهر الأردن ، فى أحد  
المسيلات آيلا صغيرا بقرنين قصيرين .

والجانب الثانى من الدغل أيضا عبارة عن شجيرات  
ملتفة ذات طابع مدارى تماما ، وتنمو تحت أشجارها نباتات  
كثيفة يصعب اختراقها ، وقد حثتني كثرة آثار الحيوانات  
على أن أحاول إثارة الطرائد من مكانها . وكان هذا لحسن  
الحظ . فأوقفت أحد الرفاق فى المنطقة الفاصلة الخالية من  
الغطاء النباتى الكثيف عند الموضع الذى تتوفر فيه كثير  
من آثار الحيوانات ، وجعلت الجنود الأتراك وبعض الخدم  
يشيرون الطرائد من مكانها تحت اشراف مساعد الصيد  
التابع لى . كانت النباتات تحت الأشجار العالية ، كثيفة جدا  
حتى أننا لم نفكر فى محاولة مسحها بمطاردة الطرائد بها ،  
فقد أدركنا أن اخراج حيواناتها من جحورها أو مكانها فى  
هذه المنطقة أمر لا نتيجة له . ولاحظت فى هذه الغيضة زوجا  
من طيور الزقزاق وبعض الحشرات .

لقد أسرعنا الآن عائدين الى خيولنا فوجدناها مسرجة  
فركبناها عائدين الى حافة الهضبة ، وكنا قد لاحظنا ونحن  
فى المناطق المنخفضة سديما مظلمة على نحو خاص ، يغشى  
السماء ولكننا لم نكن قادرين على تبين شكله ، ولما وصلنا  
للقمة اتضح لنا بشكل جلى ، لقد كان السهب كله — من نهر  
الأردن حتى السفوح الشرقية للتلال — ملتفا بسحب الدخان  
التي تظهر بين سوادها العالك السنة اللهب . لقد كانت  
المنطقة المغطاة باللهب والدخان هى المنطقة التي اجتزناها  
بخيولنا صباحا ، لقد أصبحت الآن طوفانا من اللهب والدخان ،  
فحشائش السهوب تحترق بسرعة شديدة لا تصدق ، وكان  
بإمكاننا أن نقدر — من دقيقة لأخرى — اتساع رقعة الحريق  
بملاحظة اقتراب عمود الدخان الذى بدا وكأنه يتبعنا .

وقد ركب في مقدمة ركبنا يوسف - وهو ضابط فارسي تركي من مواليد تركستان ، وهو رجل قوى ذو لحية داكنة يحمل في يده كزباجا ( سوطا ) رمزا للسلطة - وذلك ليدلنا على أقصر الطرق . لقد ركضت خيولنا خبيا بشكل راتع قاطعة السهوب يتبعها حريق كبير . انه مشهد قلما تشهده القارات الأخرى بالدرجة نفسها ، وقد اندفع خنزير برى هاربا من الحريق مثلنا ومر على بعد خطسات قليلة من حصانتي .

كانت طبيعة الأرض تساعد الخيول على العدو ، فوصلنا سريعا عبر السهوب وعبر منطقة ذات أشجار شوكية أذتنا أشواكها كما أذت الخيول ، وبعد ساعتين بدأت طبيعة المنطقة تتغير ، فأصبح السوادى أكثر عرضا . وارتفعت التلال الخضراء الصغيرة وسطه مغطاة بالشجيرات والشعير القصير . أما ناحية الشمال فقد حجبت عنا الجبال الجميلة رؤية ما خلفها : أنوف جبال الكرمل ، والجبال المحيطة بالناصره وجبل طابور ( تل طابور ) الشامخ بهيئته المكددة وجبال لبنان وجبل حرمون المجلل بالجليد وجبال بحيرة طبرية ، وإلى الشرق مرتفعات الجولان ، كل هذه الجبال كان يمكن رؤيتها وتمييزها ، ومررنا في طريقنا بمقبرة بدوية صغيرة ، وقد أضفت عليها أشجار الجميز العتيقة مزيدا من السوقار والحزن .

واقتربنا شيئا فشيئا لهدف رحلتنا هذه ، وهو قرية بيسان وما حولها من أراض جيدة تتخذ شكل دائرة واسعة ، إنها منطقة مشهورة . وفي كل الاتجاهات كنا نجد غدراننا صغارا تنحدر من الهضبة تحف بها شجيرات كثيفة منخفضة وحشائش وبوص ( غاب ) ونباتات مستنقعية . وكنا نسمع صيحات الديوك السوداء ( \* ) التي توجد هنا بأعداد كبيرة تأتينا من كل جانب .

( \* ) النسر : blackcock ولم نثر على مقابلها العربي في المعاجم الزراعية المتوفرة لدينا - ( المترجم ) .

وئمة أحجار مقطعة وحطام فى وسط النطاء النباتى  
اليانع الآن ، بالقرب القريب من القرية البائسة المكونة من  
عدد قليل من البيوت الحجرية ، وئمة شواهد على ما كانت  
عليه القرية من أهمية فى عصور غابرة كما تدل على تراث  
المكان . لقد نسى كل هذا منذ فترة طويلة . ففى عصر  
التوراة سكن الكنعانيون هنا ، واستولى عليها بعد ذلك داود ،  
ولما فتحها Scythians أسماها اليونانيون سكيثوبولس  
Scythopolis . وفى أيام الرومان كانت غنية ومزدهرة  
والتقت فيها كليوباترا مع جانيوش Jannaeus ، وتقسم  
بمباى Pompey من بيسان الى جبال يهوذا Judaea .  
وفى العصور المسيحية الباكزة كانت بيسان مقرا للاستقف  
كما كانت مشهورة باعتبارها محلا لميلاد باسيليدز Basilides  
وسيريلوس Cyrillus . وقد هزم صلاح الدين بيسان  
وأحرقها وسواها بالأرض ففقدت - الى الأبد - نظمها  
وقوتها ، ولم تبق لها - بعد ذلك - قائمة .

وأخر بقايا المسرح القديم وبعض المعابد وكثير من  
الأعمدة البازلتية المشيدة بين الشجيرات وحشائش الأراضى  
المستنقعية ، ما تزال قائمة يسمع حولها ثقيق الضفادع  
وجعارين الطين . وفى هذه القرية ( بيسان ) البائسة  
القدرة يبدو السكان وكأنهم فى مجاعة الى جانب الجدران  
الحجرية الكثيرة ، ويجوس الأطفال والكلاب فى الأراضى  
السبخة المشبعة بالمياه . لقد وجدنا معسكرنا مقاما بالفعل  
ومرتبا أحسن ترتيب ، فى الجزء الشمالى من القرية ،  
وبالقرب منه مسيل يهبط بشدة ، وقد انبجست منه عين خرج  
منها غدير راح يجرى مرحا بين الصخور والشجيرات وأشجار  
الجميز بفروعها الممتدة ، ورأينا هنا آثار الحمائم  
الرومانية محفورة فى الصخور . وعلى مستوى أعلى من  
معسكرنا - الى الغرب من القرية - توجد الهضبة ومنطقة  
الينابيع .

وعند وصولنا ذهبنا ذات مرة - مع بدوى صياد ، كان ينتظرني الى جوان خيمتي - الى المستنقعات والاراضي السبخة . لقد كان الماء يسيل في كل مكان وبدت الارض وكأنها قطعة كبيرة من الاسفنج . فالناب (البوص) والبردى والشجيرات ترتوى بوفرة من الأرض السبخة . ودلت كثرة اتار الخنازير البرية ، وعملية اثاره الطرائد بشكل ناجح على وفرة الطرائد في هذا المكان ، فقد كان العمود الروماني قد اعتراه كثير من التدمير بسبب الخنازير البرية ، ففي كل مسام تاتي الى هذا العمود لتحك جلدها به اذا لم تكن الاشجار نامية بشكل كاف . ورغب الى البدو أن يختبئ خلف الدغل وأنظر قدوم هذه الخنازير ، لكنني لم أرغب أبدا في أن أبقى في هذه السبخة النتنة حتى الغروب فعدت للمعسكر بسرعة .

كانت القافلة الكبيرة تبدو مضطربة نوعا ما ، فقد انطرح الخيول واليغال مرهقة تماما حول المعسكر ، ولم يكن الرجال في حالة أفضل كثيرا - وكل هذا نتيجة المسير المستمر طوال النهار وثقل ومطاة الهواء في هذه المنطقة السبخة . وبعد أن تناولنا وجبتنا أوى كل واحد منا مرهقا متثاقلا الى خيمته .

وفي العاشر من أبريل - وهو يوم أحد السعف (\*) ، عم المعسكر النشاط عند شروق الشمس ، فجهزنا الخيمة الكبيرة لتكون كمصلى (كنيسة صغيرة) وزيناها بقدر ما يتيح الامكانيات ، وأقام القسيس الملحق بالقافلة القداس وبارك السعف الذي وزع على كل المسيحيين في القافلة .

وبعد الافطار رتبنا أمورنا للخروج للقنص ، واقترح بعض الرفاق أن يجولوا جولة سريعة في المنطقة الواقعة

---

(\*) وهو يوم الأحد الذي يسبق الفصح وفيه تحيي ذكرى دخول المسيح ( عليه السلام ) ظاهرا الى بيت المقدس حيث استقبله الناس وهم يحملون سعف النخل - ( المترجم ) .

شمال المعسكر ، أما أنا والدوق الكبير فقد رافقتنا بعض بدو المنطقة — وكانوا ذوي وسامة ومنظرهم متيرير — لقنص الخنازير البرية في اتجاه نهر الأردن .

ومررنا خلال القرية الى المنحدر الشرقي للهضبة وهيطننا خلال غابات كثيفة ومناطق مستنقعية ، فوصلنا لغدير كان شاطئاه منحدرين ، ودل بطن واديه الصغير — يما فيه من خضرة — على أننا سنحظى بصيد وافر كالذي حظيتنا به في الأيام الأخيرة في وادي الاردن مع سالم . وعلى أية حال ، فقد اكتشفنا — بعد محاولات عديدة غير مجدية — أنه لا البدو ولا الكلاب يقادريين على التغلغل في هذه الغاية الكثيفة ، ومن ثم فقد واصلنا مسيرنا لنقطع مسافة طويلة عبر السهوب الى منطقة سبخة قال البدو أنها ملائمة لأهدافنا . وفي حشائش السهوب استطعنا اصطياد بعض السلوى وسربا من طيور الزقزاق ، وشيئا فشيئا وصلنا للأرض السبخة التي بدت واسعة ، وقد نبتت فيها الشجيرات التي ظهر من بينها حيرانان صغيران بشكل ملحوظ — الواحد منهما أصغر من الأيل ولونه أصفر ، وله قرون كقرون الظبي وحركته رشيقة ، وله ذيل كثيف كذيل الأيل الآدم (الأسود) . ومما يؤسف له أنهما كانا بعيدين فكان اطلاق البنادق عليهما غير مؤثر . وكانت حواف الأرض السبخة مغطاة في بعض الأماكن بالمستنقعات والحشائش السمكية الطويلة هي الحشائش السيفية ( حشائش سيف الغراب ) ، وقد اصطلدنا في هذه الأرض الرطبة بعض طيور الدراج ( بتشديد الدال وفتحها ) الجميلة ، وأنثى واحدة من الطير نفسه يلونه البنى الفاتح ، ولم تكن تشبه طيور التدرج ( بتشديد التاء وفتحها وضم الراء ) ( \* ) .

وأرسلنا الدوق الكبير — الآن — للجانب الأبعد من هذا الدغل المكون من بوص ( غاب ) كثيف أصفر ، بينما بقيت

(\*) طائر ذبال شبيه بالحجل Phaesant ( جمع الشهابي ) .

أنا والبدو لتتغلغل فيه من ناخيتنا • لقد كان البسوس  
والبردى أطول من قامة الرجل وغصنا حتى الركب فى  
المستنقعات وفى بقايا النباتات المتعفنة • وبعد أن سرنا  
سيرا مرهقا طويلا فى هذه الأرض التى تعافها النفس والمليئة  
بجمارين الطين، وصلت لمكان ثقل فيه كثافة النباتات فوقفت  
فى الماء، وكان على كما وجهنى البدو أن أنتظر حتى يحين  
وقت المطاردة • آلاف مؤلفة من حشرات المستنقعات المؤذية  
التفت حولى • لقد كانت — والحق يقال — بقعة مؤذية مقلزة  
ليس من السهل على أن أنساها • وناضل البدو لاثارة الطرائد  
بين النباتات فى كل اتجاه لكن جهودهم ذهبت هباء • وسمعنا  
صوت خنازير برية تهشم النباتات الكثيفة، لكن أيا منها لم  
يسرح منبأه، كل ما فى الأمر أن بعض طيور البيلشون حلقت  
فوق رؤوسنا • وسعيت للخروج من هذا المكان المرعب بأسرع  
ما يمكن، فقد شعرت أننى استنشقت كثيرا من بخار عفن  
المستنقعات والمخلفات النتنة، وقبليل المساء كان على أن  
أعانى نتيجة هذا • وسرعان ما عاد الدوق الكبير أيضا من  
الجانب الآخر للمستنقع بسبب فساد الهواء، فركبنا خيولنا  
التي كان فرديناند الممتاز قد أتى بها، وركبنا عائدين •

وقد أصبحنا مرات عدة طيور الدراج ( بتشديد الراء )  
فى البردى الطويل • لقد كانت خيولنا تسير فوق حشائش  
السهب ورغبت أن أجرب كيف يبدأ الحريق ثم ينتشر  
بسرعة، فرحت ألقى بعض أعواد الثقاب المشتعل بينما  
حصائى منطلق، وفى ثوان قليلة شب حريق هائل وراح  
ينتشر بسرعة شديدة، حتى أننا اضطررنا لإطلاق العنان  
لأفراسنا مخافة أن يلحق ( الحريق ) بنا • وفى اليوم التالى  
كان يمكننا رؤية هذا الجزء من السهب ما يزال غارقا فى  
سحب الدخان • وعدنا سريعا الى بيسان فوجدنا باقى الرفاق  
قد وصلوا ومعهم بعض الطرائد •



وبعد أن تناولنا وجبتنا مارش بعض البهلوانات  
المصريين rope dancers العابهم أماننا ، وكانوا يسافرون  
مارين بييسان . وراينا منهم بعض الألعاب السحرية بعضها  
تاجح وبعضها أقل درجة ، كما رأينا امرأة - بينهم - رقصت  
رقصة النحلة وهي رقصة شهيرة في مصر ، وبعد الظهر  
غادرنا - مرة أخرى - معسكرنا وانتشرنا بين الأعشاب  
السيقية ( أعشاب سيف الغراب ) المنتشرة بالقرب من القرية  
وكانت طيور الدراج لا تفتأ تغرد بها طوال النهار ، وكان  
من السهل إطلاق بنادقنا على هذا الطائر الكبير الجميل ، ذي  
المذاق الطيب لذا ، فهو من أفضل الطيور التي يرغب المسافر  
في اصطليادها . وأخذ كل واحد من الرفاق بعض البند أو  
الخدم معه ، الى البقعة المحددة له لاصطياد هذا الطائر . لقد  
قسمنا بيننا أفضل البقع بالقرب من القرية في دوائر محددة  
حتى لا تتداخل طلقاتنا .

وبينما كنت في ذروة نشاطي أحسست فجأة بدوار  
عنيف كما أحسست كان شللا أصاب قدمي . صداع عنيف .  
كما أحسست - رغم أن حرارة الجو شديدة - برودة شديدة  
تعم جسدي كله وكأنني في جو بارد ثلجي ، فاضطرت  
للزحف ، والعودة للمعسكر بأسرع ما يكون . أنها الحمى  
التي يمكن أن تصيب الانسان في مثل هذا الجو في غضون  
دقائق قليلة ، فتحولت من رجل سليم معافى الى رجل مريض .  
كانت كل عضلاتي تؤلمني ، وأية حركة أقوم بها تسبب لي  
ألمًا كذلك . وعاد باقي الرفاق الى المعسكر ومعهم عدد طيب  
من طيور الدراج . وخلال الليل لدغت عقرب كبيرة سييء  
الحظ كورنسكي ، ثم لدغت بعد ذلك ساخس Sachs .  
لقد تلقى كورنسكي الجرعة القوية الأولى من سم هذه  
العشرة البغيضة . فظهرت عليه أعراض تسمم حادة سببت  
أقصى درجات القلق . وفي صباح اليوم التالي عم الاحباط  
سائر المعسكر ، فكان كل شخص فيه يعاني على نحو أو آخر  
نتيجة سوء المناخ ، وكنت أنا وكورنسكي وأهنيين بأوسين

لا بد من أدراجنا في قائمة المرضى، وسقط بعض الخدم أيضا مرضى نتيجة سوء المناخ . وكانت كل لحظة تهدد المعسكر بإضافة مرضى جدد بالحمى وعم القافلة خوف شديد مسعور من العقارب الآسيوية .

لقد كانت خطتنا الأصلية تقضى بأن نمضى هذا اليوم أيضا في بيسان، ثم نتجه الى بحيرة طبرية ومنها الى الناصرة ، وأن نقضى وقتا في توقير الأسبوع المقدس ( أسبوع الآلام ) حتى أحد عيد الفصح . ولكي نهرب من الحمى قررنا الآن أن نقضى الليلة التالية على قمة جبل طابور ، وأن نسافر نهار اليوم التالى الى حيفا، حيث تنتظرنا سفينتنا ميرامار التى تم استدعاؤها من بيروت، لقد كانت أماننا - اذن - رحلة طويلة سنبداها مباشرة بعد الافطار . واستطعت بصعوبة أن أستوى فوق حصانى من شدة الوهن ، وستمضى فترة طويلة قبل أن أنسى ذلك . وكان علينا - فوق ذلك - أن نمر خلال مناطق كثيفة غير شائقة ، فى الشمس الحارقة . لقد تركنا الآن السهوب الشبيهة بسهوب الأردن لنصل الى حدود مستوية طويلة وأودية لا متناهية . مسطحات صخرية ، وشجيرات قليلة تتخلل بعض الحقول التى لم تزرع زراعة جيدة . ومررنا بقطمان من الجمال والماعز . المنطقة البدوية وراءنا ، والسكان هنا يلبسون ملابس متباينة ، فالتباين فى اللباس هنا أوضح من ذى قبل - ففى المناطق الشمالية - ان جاز التعبير - نجد الطراز الآسيوى فى اللباس أكثر وضوحا مما هو فى يافا . لقد لاحظنا عمائم ضخاما وعباءات واسعة يحركها الهواء ، ومعاطف مزركشة ، وأحذية متميزة حمراء .

كانت الرحلة مملة ، وكان عزاؤنا الوحيد أن نفرض الطرف عن المناظر البائسة حولنا ، لننظر الى الجبال الجميلة ، وأخيرا وصلنا الى سفح تل طابور ، ذلك الجبل القائم بمفرده دون سلسلة ينتمى اليها ، كما أن سفوحه شديدة الانحدار . وكانت كل منحدراته من السفح الى

القمة مغطاة بالواح حجرية وكتل صخرية غير ثابتة وشعير ( شوفان ) برى متفزم . وتخرج الطريق على جانب التل مارا بقرية بائسة من عدة بيوت صغيرة حجرية ، وبدأ من غير المفهوم أن تستطيع الخيول التحكم فى نفسها لاجتياز هذه المنطقة ، وبين الصخور نمت شجيرات دائمة خضرتها ولم يكن منظر الشعير القصير كثير العقد جذابا . ان نوع الغطاء النباتى هنا هو الغطاء النباتى لساحل البحر المتوسط . لقد تركنا وراءنا بالفعل الغطاء النباتى الآسيوى الجذاب . وكان ركوبنا فوق قمة تل طابور بعد الظهر - بعد هذه الرحلة الطويلة - أمرا باعثا على السرور شيئا ما - ووصلت خيولنا المرهقة أخيرا - بعد انزلاق وتعثر - الى الجدار الخارجى لدير صغير . لم أكن بقادر على الاحتفاظ بعينى مفتوحتين لفرد ما ألم بى من إرهاق ، فقد كنت لأزال أعانى من آثار الحمى . وكان الدوق الكبير قد ألم به المرض من جراء الركوب لفترة طويلة ، وفى الليل هاجمته حمى كالتى هاجمتنى بالأمس - لكن بشكل أقسى .

وكانت خيمة واحدة قد تم ارسالها لتسبقنا الى تل طابور ، أما بقية القافلة فبقيت فى الناصرة فلم يكن من الممكن حث البغال المرهقة على صعود الجبل مع بقائها حية فى الوقت نفسه . وقد اضطجعنا فى هذه الخيمة لننام فى انتظار الطعام . لقد تركنا الآن هواء الأردن الكثيب الرطب - لوقوع المنطقة تحت سطح البحر ، وأصبحنا الآن فى منطقة جبلية هوائها عليل ونسائم مسائها منعشة وبرودة ليلا ثلجية ، بينما نهارها حار .

كانت المناظر البعيدة تبدو رائعة من فوق تل طابور ، فالى الجنوب الشرقى يمتد سهل الأردن الواسع وقد غطاه بخار الهواء الثقيل وحفت به الجبال من الجانبين ، وكانت سلسلة الجبال الغربية ( فى الضفة الغربية للثهر ) خضراء

داكنة مع عدد لا يحصى من القمم والأشكال المخروطية ،  
وكانت الجبال الشرقية شامخة جرداء - انها موطن القبائل  
الهندوية النبيلة - وإلى الشمال الشرقى بدت بحيرة طبرية  
كمراة صافية تحفها التلال - وإلى الشمال جبال لبنان  
وحرمون يجللها الجليد ، وإلى الأدنى منا - عند سفح جبل  
طابور توجد المنطقة التلية التى تقطعها الأودية والمسيلات  
التي تغطيها الأحجار والشعير البرى والتي تمتد حتى الجبال ،  
الكتلة الصخرية لجبل الكرمل أو جبل مار إلياس Mar-Elia  
الشامخ الذى يقف متفردا غير مرتبط بسلسلة جبلية .

وفى ساعات المساء استمتعنا بهذا المنظر الجميل .  
وكانت بعض النُسور الذهبية والصقور الملكية تدور منطقة  
فوق الوديان الهادئة العامرة بالأشجار - هدوء تام يخيم  
حولنا ، فليس من صوت سوى صوت جرس الدير الواضح  
ينادى بالسلام المريمى (تحية جبريل للعذراء : سلام عليك  
يا مريم ) فى هذه البقعة النائية الخالية - وبدأت أحس أننى  
قادر على أن أدب ببطء حول قمة التل لأتفقد المباني والآثار .  
كان الدير اليونانى يقع فى مواجهة دير لاتينى (كاثوليكي)  
نصبت فى ساحته خيامنا ، وبين هذين المبنين ، وحولهما  
توجد أسوار آيلة للسقوط وأحجار وبقايا تحصينات قديمة  
- أصبحت النباتات تنمو - الآن - بينها - ولفتت انتباهى  
بوابة ذات قمة مستدقة تحظى بالصيانة ، وإلى جوارها توجد  
خرائب ( بقايا ) من كل العصور مختلفة صفاتها ، كبقايا  
قلعة تبدو عائدة للعصور الوسطى العربية .

وفى المهد القديم نجد تل طابور يمثل الحد الفاصل  
بين قبيلة يساكر Issacher وقبيلة زبولون Zebulon ، وقد  
جمع Deborah جيشا هنا ، ومن هنا هبط العبرانيون إلى  
السهل وذبحوا Sisera قائد ملك هازور Hazor المدعو جابن  
Jabin . وكانت مدينة تسمى ايتابيريون Iabyrion تقع على  
قمة تل طابور تحت حكم أنتيوكوس الكبير great Antiochus the

وفى سنة ٥٣ الميلاد شن جامبينيوس Gambinius حرباً ضد اليهود ، وقد جعل جوزيفوس Josephus من تل طابور قلعة حصينة ، وفى عهد فسباسيان Vespasian م ذبح عدد كبير من الاسرائيليين على يد قائده بلاسيدوس Placidus .

وقد ارتبط هذا الجبل — دائماً — منذ عصور المسيحية بالباكرة بتجلى المسيح ( عليه السلام ) ، لذا فهو جبل يحظى بالتوقير . وقد وصفه كل من أورجن Origen وجيروم Jerome . وقد شيد الصليبيون أول دير فوقه ، الا أن المسلمين دمروه على أية حال .

وفى سنة ١٢١٢ بنى الملك العادل — أخو صلاح الدين — قلعة فوقه ، حاصرها الصليبيون — بعد ذلك — دون نتيجة ، ثم بمرور الوقت دمرها المسلمون أنفسهم لتضاؤل أهميتها ، ولا ترجع الأديرة الحالية هنا لأزمة قديمة وان كان قد تم تشييدها على اطلال الأديرة الأولى .

وكل المنطقة المحيطة بتل طابور مليئة بالذكريات التاريخية لذا ، فهي منطقة جذابة تحظى من المرم باهتمام مضاعف . وبالقرب من تل طابور يوجد تل آخر دائرى يرتفع من وسط واد صغير أخضر ، حقق صلاح الدين عند سفحه أروع انتصاراته فى الثالث والرابع من شهر يوليو سنة ١١٨٧ ، ومن يومها بدأت القوى الصليبية فى الاندحار النهائى . وتم أسر الملك جاي Guy ملك لوزجنان Lusignan وآخرين كثيرون غيره ، وبيع الفرسان للعبيد ، وتم اعدام فرسان الهيكل Templars ورهبان القديس يوحنا جميعا ، وقتل صلاح الدين بنفسه رئيس فرسان الهيكل . وهذا التل نفسه يشار اليه باعتباره الموضع الذى ألقى فيه المسيح عظامه ( عظام الجبل ) ، كما يشار اليه كموضع لمعجزة الخبز والسمك Loaves & fishes .

وفى المساء تناولنا عشاءنا فى غرفة واسعة بالدير تم  
اويننا الى فراشنا مبكرا للراحة . كان الدوق الكبير يعانى  
كثيرا من الحمى وتناول قدرا كبيرا من دواء الكينين . وفى  
١٢ ابريل استيقظنا مع شروق الشمس . لقد ولت ايام  
الاقامة فى النيام واستت كثيرا لهذا . وهبطنا الجبل على  
الأقدام ، فقد كان الهبوط راكبين مستحيلا . كنا بما فينا  
المرضى والناقهين نتحرك ببطء فوق الأحجار والدبش وبين  
الشعير البرى . كان الهواء باردا ومنعشا ، كما كانت الجبال  
حولنا . وقد لمستها أشعة الصباح تتألق بتدرجات لونية فاتنة ،  
وبعد مسير مرهق وصلنا أخيرا للوادي وركبنا خيولنا .

وأمكننا أن نعبى فوق ظهور جيراننا سلسلة تلال تغطيها  
الصخور والشجيرات ، ومن منحدراتها المقابلة أمكننا أن  
نلقى نظرتنا الأولى على الناصرة الواقعة فى بطن واد  
صغرى . ووصلنا لطرف المدينة الصغيرة البعيد بالمرور فى  
الشنوارع الضيقة . وكان الطبيب قد منعنى — بسبب  
الحمى — من دخول أى سراديب باردة ، وأية أماكن ضيقة ،  
لذا لم أكن قادرا على زيارة الكنيسة ومصلى البشارة ( المقصود  
بشارة الملك جبريل لمريم بحملها بالمسيح ) الشهيرة وكل  
الأماكن المقدسة .

وتذكرنا العمارة فى الناصرة بعمارة بيت لحم ، ويدين  
السكان بديانات مختلفة ، ويختلفون فى ملامحهم عن أهل  
جنوب فلسطين فالوانهم أكثر بياضا ، وأزياؤهم — رجالا  
ونساء — جميلة جدا ، وكانت الخيمة المعدة لطعامنا قد  
نصبت فى مكان مكشوف واستراح جانب من أفراد القافلة  
على الحشائش المحيطة بها . وسبقنا العدد الأكبر من البغال  
محملا بالأمتعة الى حيفا . تناولنا افطارنا سريعا وركبنا  
حناطير ذوات أسقف منخفضة تجرها خيول صغير حجمها ،  
وقد عمل رجل سويسرى منذ سنوات كثيرة مضت فى تنظيم  
هذه العربات ( الحناطير ) بين الناصرة وحيفا . كان الطريق

— ان جاز اطلاق هذا الاسم عليه — مريكا فقد معاله ، وراحت العربات ( الحناطير ) تكسر عظامنا ، فمرة ترتفع ومرة تنخفض فوق الصخور والأحجار . وعبرت عربتنا بعض حيود التلال المغطاة بمساحات من الشجير غير الكثيفة وبأشجار دائمة خضرتها . وفي الوديان الكاثنة بين هذه التلال توجد مروج سبخة للغاية كانت العربات مهددة بأن تسيخ فيها ( تنغرس فيها ) . كان الطقس — لحسن الحظ — لطيفا غير مبعن في حرارته . وكانت المنطقة جميلة . ونمت أشجار كثيرة نموا حسنا ، وكثرت الزهور ، وبعد مسير طويل وصلنا لسهل عريض يمتد على طول الخليج تقع عند آخر نقطة في شماله مدينة عكا . Akha أو بطولمياز Ptolemias الشهيرة ، أما الرأس الجنوبي مع جبل الكرمل الذي ينحدر بشدة نحو البحر ، فيتأخم حيفا . والسهل نفسه مزروع زراعة جيدة ، وعلى ضفاف نهر صغير هو نهر المقطعا El-Mukatte نجد أشجارا مثمرة ، لقد أرهقنا الطريق وسبب لنا ألما ، بسبب كثرة حفره في آخر ساعة نقضيها في آسيا .

سحب كثيفة في الأفق ، والشمس غائمة والرياح الباردة تهب من البحر وكانما قدمت من أوروبا الباردة ترحب بعودتنا الوشيكة . لقد كان علينا الآن أن نلقى — بشغف — نظرة أخيرة على قوافل الجمال والماعز بأذانه الطويلة ، والخيول العربية والبشر بعباءاتهم الواسعة ، والملابس البهيجة والعمائم الكبيرة والمنازل الشرقية والمقابر الآسيوية وكل حركات الحياة الشرقية ، التي شوقتنا وأمتعنا لفترة طويلة والتي كنا قد بدأنا نتألف معها . لقد راح كل منا يحاول حضر ما يراه في ذاكرته حتى اذا ما عاد لأوروبا ، حيث البرودة وحيث العواصف الشمالية التي يعانى منها الأوروبيون البؤساء — فان هذه المناظر الشرقية ستمثل أمام عيون

الذاكرة ، فيشعر الانسان وكأنه عاد للشرق مهد الانسانية ،  
وحيث فلسطين ، والشرق المقدس الذهبى العظيم •

وهبطنا فى طريق ضيق من طرق حيفا لنصل سراعاً الى  
الميناء ، ومدينة حيفا مشيدة على درجات المنحدرات الحادة  
لجبل الكرمل • خطوة أخرى فى الأرض الشرقية ، نظرة  
أخرى أخيرة على الحياة الشرقية المبهجة ، وانتزعنا أنفسنا  
انتزعاً من الشرق ، وحملنا قارب — راح يتمايل مع الموج —  
الى مرسى سفينتنا مرامار •

\*\*\*



## الفصل العاشر

العودة - المرور بكانديا - زانطة - قناة  
ايثاكا Ithaca - كورفو - تأخر اضطرارى  
لساعات فى كورفو - بوشى دى كاتارو Bocchi di  
Cattaro راجوسا - زارا - تريست - الرحلة الى  
فيينا - نهاية الرحلة \*

بدأت باخرتنا ابحارها قبل أن يسدل الليل سدوله ،  
وغطت ظلال الليل تلال الساحل الآسيوى فألقت عليها غلالة  
من غموض ، وارتفع الموج يضرب سفينتنا ، وبدأت سفينتنا  
غير مستقرة لساعات \* وقضينا معظم الثالث عشر من الشهر  
فى هواء بارد فى عرض البحر \* كانت السحب الكثيفة تجلجل  
السماء وعم السكون فى مرامار \* وراح الركاب الذين  
لا يعانون مرضا يراقبون الموج من فوق سطح السفينة ،  
سارحين بأفكارهم فى بلاد الشرق العظيم \* لا شك أن المرء  
سيغرق فى ذكريات الأيام السعيدة عندما يركن للهدوء \*

وفى اليوم الموافق للخامس عشر من هذا الشهر ظهرت  
لنا جزيرة كانديا بمناظرها الجذابة ، ومررنا بالقرب من  
سواحلها متأملين جبل ايدا Ida الذى يغطيه الجليد \* وفى  
اليوم التالى رأينا رأس ماتابان Matapan الجبل اليونانى ،  
وبعد الظهر رأينا زانطه Zante ومررنا بين الجزيرة  
والساحل اليونانى الرئيسى ، لنرى بعد ذلك قمم سيفالونيا  
المعتمة Cephalonia ، وفى نور القمر الرائع مررنا بقناة  
ايثاكا Ithaca الشهيرة - موطن أوليسيس Olysses  
ورأينا صخرة سابو Sappho والجزر التى أحاطتها الأساطير

الاغريقية بهالة من القداسة . وفى بكور اليوم السابع عشر .  
دخلت مرامار ميناء كورفو . وحيثنا جلجلة الاجراس . فقد  
كان هذا اليوم هو عيد أحد السعف بالنسبة لليونانيين . فقد  
كانت المواكب المزدانة والقسس يملأهم الثمينة يتبعهم  
أهل البلاد بازياء جميلة — يتحركون على طول الشاطئ .  
وكان لابد من زيادة خزيننا من الفحم فأرسلنا لهذا الغرض  
مندوبنا الى خليج ابسا Ipsa . ووضعنا قاربنا بجانب  
منزل صغير مطل على البحر وتسلقنا — خلال حدائق يانعة  
وحقول شعير الى القمة ، حيث ألقينا نظرة على الجزيرة الجميلة  
والجبال الألبانية المقابلة . وعندما عدنا الى مرامار وواصلنا  
رحلتنا كانت فترة ما بعد الظهر هادئة . والهواء دافئا  
فاستمتعنا بمناظر الساحل الجميل ونحن نمر ازاءه .

وفى يوم ١٨ استيقظنا عند بونتا دسترو Runta d'Ostro .  
ولأن معظم رفاق الرحلة لم يسبق لهم التعرف على  
بوشي دى كاتارو Bocchi di Cattaro . فقد أبحرت مرامار  
بين جروف رمادية عالية الى كاتارو ذات الموقع الرائع ،  
وقمنا بنزهة قصيرة داخل المدينة الصغيرة وأثارت اعجابنا  
ملابس الفلاحين الجميلة المتباينة ، وبدأ جذابا أن يستجيم  
المرء فى هذه المنطقة الصخرية المرتفعة التى يقطنها جبليون  
شجعان لهم أخلاق الفرسان .

وبعد الظهر وصلنا لاکروما Lacroma ورست سفينتنا  
على هذه الجزيرة الصغيرة الجذابة . كان كل شيء فيها أخضر  
ومزهرا ، وتنسمنا — لآخر مرة — هواء الجنوب الحقيقى  
ونعمنا بأشعة الشمس فى يوم ربيع حقيقى ، وجدفنا بقارب  
لنصل الى راجوسا — وهى دوبروفنيك القديمة السلافية —  
وتجولنا حول المدينة الثرية بقصورها ومبانيها الجميلة ،  
وقضينا الليل على سطح مرامار فى ميناء جرافوزا Chavosa .

وفى التاسع عشر من هذا الشهر لم يكن البحر هادئا ،  
وكانت السماء غائمة وهبت رياح باردة وسقطت زخات من

المطر . ان الرحلة بين الجزر الدلاشية الجميلة جدا بشكل عام — لم تقدم لنا الا القليل من المتعة . وقد بقينا فى زارا Zara طوال المساء والليل .

وفى اليوم العشرين بدأنا مبكرا من عاصمة دلاشيا ووصلنا تريست بعد الظهر ، والمطر ينزل والسماء عاجة بالسحب ، وقضينا يوما ممتعا هناك ، وغادرتنا بعد ظهر اليوم الواحد والعشرين وودعنا — وداعا مؤثرا — قبطان السفينة ميرامار التى لم نخذلنا ، وكل العاملين معه ، وفى كارست Karst ألقينا نظرة مودع للبحر الجميل فستمضى منذ الآن فترة طويلة فى البر الأوروبى .

وانقضى الليل سريعا . فقد كنا أثناء الليل نعلم بالبدو على خيولهم العربية ، وبالمآذن الرشيقة ، والجبال الشامخة ، والصحراء الشاسعة والنيل المقدس وغابات النخيل المتموجة ، وأشجار الجميز ، وأسرار معابد ايزيس ، لكن أحلامنا السعيدة تلك سرعان ما بددها الواقع ، فقد استيقظنا فى سمرنج Semmering ، فاستقبلتنا بريح الشمال القارصة وثلج ، وقد تدثرت بعباءة من جليد . وفى فينا ، كانت السحب الكثيفة تحجب السماء ، واعترت المسافرين — الذين اعتادوا على شمس الجنوب — قشعريرة . انه مناخ الشمال الأوروبى البارد الكتيب .

وانتهت الرحلة وتفرق جمعنا ، لكن أفكارنا ظلت مرتبطة ارتباطا لا فكاك منه بالشرق البعيد .

تعية لك يا هذا الشرق الذهبى العظيم المشمس !

## اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	الحلام والإعلام وقصص أخرى
ي . رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلي	نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا في مائة عام
رايموند وليسامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا ( ٢ ج )
ليستريدل راى	الأرض الغامضة
والترالين	الرواية الانجليزية
لويس فارچاس	الرشيد الى فن المسرح
فرانسوا دumas	آلهة مصر
د . قدرى حفى وأخرون	الانسان المصرى على الشاشة
اولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكذوال	مجموعات اللقود
عزیز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س . بى . كوكس	ديسلان توماس
جون لويس	الانسان تلك الكائن الغريب
جسول ويست	الرواية الحديثة
د . عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
انور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وأدبنيث	القوة النفسية للامرام
د . صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلر	تولستوى
فيكتور برومير	سنتدال

- رسائل واحاديث من المنفى  
الجزء والكل ( محاورات في مضممار  
الفيزياء الذرية )  
التراث الغامض ماركس والماركسيون  
فن الادب الروائي عند تولستوى  
ادب الاطفال  
احمد حسن الزيات  
اعلام العرب في الكيمياء  
فكرة المسرح  
الجديس  
صنع القرار السياسى  
التطور الحضارى للانسان  
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال  
تربية الدواجن  
الموتى وعالمهم في مصر القديمة  
التحلل والطب  
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى  
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء  
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤  
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة  
الصحافة  
اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن  
التشكيلى  
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية  
وبعدها  
حركة عدم الانحياز في عالم متغير  
الفكر الاوروبى الحديث ( ٤ ج )  
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى  
١٨٨٥ - ١٩٨٥  
التنشئة الاسرية والابناء الصغار
- فيكتور هوجو  
فيرنز هيزنبيرج  
سندنى هرك  
ف . ٠ ع ادينكوف  
هادى نعمان الهيتى  
د . نعمة رحيم العزاوى  
د . فاضل احمد الطناتى  
جلال العشرى  
هنرى باربوس  
السيد عليوة  
جاكوب برونوفسكى  
د . روجر ستروجان  
كساتى ثير  
ا . ٠ سيبندر  
د . ناعوم بيتروفيتش  
جوزيف داهموس  
د . ليثوار تشامبرز رايت  
د . جون شيندار  
بيير اليبير  
د . غبريال ومبة  
د . رمسيس عوض  
د . محمد نعمان جلال  
فراكلين ل . ٠ باومر  
شوكت الريمى  
د . محيى الدين احمد حسين

ج . دادلى اندرو	تفريعات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الادب القصصى
د . جوهان دورشتر	الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
طائفة من العلماء الأمريک	حرب الفضاء
د . السيد عليوة	ادارة الصراعات الدولية
د . مصطفى عنسانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الادب اليابانى
فرانكلين ل . باومر	الفكر الأوروبى الحديث ٢ ج
جسپريل باير	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسپنى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سسوين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف . س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	اجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س . م . بورا	الجزيرة اليونانية
د . عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
رونالد د . سمپسون	العلم والطلاب والمدارس
ونورمان د . اندرسون	
د . انور عبد الملك	الشارع المصرى والفكر
والث وتيمان روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد س هيس	تبسيط الكيمياء
جون يوركهسارت	العادات والتقاليد المصرية
الان كامبيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياحى
فريد هويل	البذور الكونية
شاندرا ويكراما ماسية	دراما الشاشة ( ٢ ج )
حسين حلمى المهندس	الهيرويين والايذز
روى روبرتسون	نجيب محفوظ على الشاشة
هاشم النحاس	

صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
الخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وقلائف الاعضاء من الالف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
قريبة اسماك الزينة	ديفيده الدوتون
الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ ج )	جمعها : جون ر • بورد
الفكر التاريخي عند الاغريق	وميلتون جولد ينجر
قضايا وملامح الفن التشكيلي	ارنولد توينبى
التغذية فى البلدان النامية	د • صالح رضا
يداية بلا نهاية	م • كنيج وآخرون
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	جورج جاموف
حوار حول النظامين الرئيسيين	د • السيد طه ابو سديرة
السكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان مو
اخصائون	سيريل السدريه
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيسلر
التوافق النفسى	توماس ا • هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الاتقراض الكبير	ميشائيل البى ، جيمس لفلوه
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
النشأمنامة ( ٢ ج )	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة ( ٢ ج )	بيسرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيسور
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميسرى
قرايم زرادشت	اختيار / د • فيليب عطية

السينما العربية	اعداد / موني براج وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المظرة وقصص أخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبشر
التاريخ من شتى جوانبه ( ٣ ج )	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلي سميث
التمثيل للسينما والتلفزيون	توني بار
العثمانيون في أوروبا	بول كولنسر
صناع الضلوع	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة في مصر ( ٢ ج )	الفريد ج . بقتلر
رسائل فارتيما	روبرتو فارتيما
الهم يصنعون البشر ( ٢ ج )	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار / د . رفيق الصبيان
السينما الحديثة	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راسل
General Organization of the Akkadian and Assyrian (G.O.A.A.)	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخ
سفر قامة	ناصر خسرو عسلى
مصر الرومانية	نفتالى لويش
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كذب غيرت الفكر الانساني ( ٣ ج )	أحمد محمد الشنواي
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتار	د . ابرار كريم الله
استريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية ( ٤ ج )	د . ج . ولس
الحملة الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيروت ( ٣ ج )	ريتشارد ف . بيرتون
الحضارة الإسلامية	ادمز مكن
الخافض ( ٢ ج )	ارنولد جزل



بادى اوتيمود  
 فيليب عطية  
 جلال عبد الفتاح  
 محمد زينهم  
 مارتن فان كريفيلد  
 سونداوى  
 فرانسيس ج \* برجين  
 ج \* كارفيل  
 توماس ليبهارت  
 القين توفلر  
 ادوارد وبونس  
 كريستيان ساليين  
 جوزيف م \* بوجز  
 بول وارن  
 جورج ستاين  
 ويليام م \* ماثيوز  
 جارى ب \* ناش  
 ستالين جين \* شولومون  
 عبد الرحمن الشيخ  
 عبد العزيز جاويد  
 محمود سامى عطا الله  
 بانكو لافرين  
 ليوناردو دافنشى  
 جوزيف نيدهام  
 د \* ليوبوسكاليا  
 ت \* ج \* ه \* جيمس  
 د \* السيد نصر الدين  
 مالكولم براد برى  
 يوسف شرارة

افريقيا الطريق الآخر  
 السحر والعلم والسدين  
 الكون ذلك المجهول  
 تكنولوجيا فن الزجاج  
 حرب المستقبل  
 الفلسفة الجوهرية  
 الاعلام التطبيقى  
 تبسيط المفاهيم الهندسية  
 فن المايك والبيانتومايم  
 تحول السلطة  
 التفكير المتجدد  
 السيناريو فى السينما الفرنسية  
 فن الفرجة على الافلام  
 خفايا نظام النجم الأمريكى  
 بين تولستوى ودستوفسكى ( ٢ ج )  
 ما هى الجيولوجيا  
 الحمر والبيض والاسود  
 انواع الفيلم الاميركى  
 رحلة الامير رودلف ٢ ج  
 رحلات ماركو بولو ٣ ج  
 الفيلم التسجيلى  
 الرومانتكية والواقعية  
 نظرية التصوير  
 تاريخ العلم والحضارة فى الصين  
 الحب  
 كنوز الفسرافة  
 اطلالات على الزمن الاثنى  
 الرواية اليوم  
 مشكلات القرن الحادى والعشرين

مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٨٤١٤

ISBN — 977 — 01 — 4912 — 8



عن القدس الشريف يحدثنا الأمير ودولف فك هذا الجزء الثالث والأخير من رحلته. يصف لنا المقدسات المسيحية واليهودية، ولا يجب من بقائهما مصانة موقرة طوال حكم المسلمين لأنه يرحب أن الإسلام يضم الديانات السابقة عليه بين جناحيه، فمجد أيضا مقدسات إسلامية. ويبدو لنا رأيه فك كثير من الحكايات اليهودية المتعلقة ببعض المواضع فك فلسطين. والحق أن الأمير ودولف دند وطأت قدميه أرض الشرق وهو يسحب فك وصف القداسة والدفع اللذين يشعان فك أجواء المنطقة وقد أسقط الرجل كل ما قرأه فك التاريخ على ما رآه على أرض فلسطين وعلى ما رآه من قبل فك أرض مصر.

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)